OPEN ACCESS

Received: 14 -06 -2025

Accepted: 16- 09-2025

الآداب

للدراسات اللغوية والأدبية

Causal and Necessitative Argumentation in the Quran: A Rhetorical Study of Constructing Psychological Balance

Dr. Mohsena Abdullah Habib Al-Harthi *

mharthey@ub.edu.sa

Abstract:

This study investigates two key argumentative relations in Quranic discourse——causal and necessitative argumentation——through a rhetorical–pragmatic lens that highlights their role in fostering psychological balance in the recipient. Adopting a pragmatic argumentative approach, the research tracks the mechanisms of linkage and patterns of semantic transition within these relations, and offers applied examples that demonstrate the systematic organization of argumentative structures in selected verses. It further explores how examining these relations can enrich our understanding of concepts connected to psychological equilibrium, and underscores the methodological value that a rhetorical–pragmatic perspective adds to the analysis of Quranic discourse. The study is structured into an introduction, a preface, two main sections, and a conclusion: the preface discusses argumentation in the Quran and its potential for building inner balance, while the first section analyzes causal argumentation and the second addresses necessitative argumentation. The findings reveal that these two relations do not merely perform abstract linguistic functions, but act as rhetorical mechanisms that guide inferential pathways in the text and shape the recipient's cognition and emotion, thereby enhancing the Quran's capacity to harmonize intellectual and affective needs.

Keywords: Quranic Argumentation, Rhetorical Argumentation, Causal Relation, Necessitative Relation, Psychological Balance.

---

* Assistant Professor of Rhetoric and Criticism, Department of Arabic Language and Literature, College of Arts and Letters, University of Bisha, Kingdom of Saudi Arabia.

Cite this article as: Al-Harthi, M. A. H. (2025). Causal and Necessitative Argumentation in the Quran: A Rhetorical Study of Constructing Psychological Balance, *Arts for Linguistic & Literary Studies, 7*(4): 214 -238 https://doi.org/10.53286/arts.v7i4.2938

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2025/06/14م
تاريخ القبول: 2025/09/16م

الحجاج السببي والاقتضائي في القرآن الكريم: دراسة بلاغية في بناء التوازن النفسي

د. محسنة عبد الله حبيب الحارثي*
mharthey@ub.edu.sa

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة العلاقتين الحجاجيتين: السببية والاقتضائية في الخطاب القرآني، من خلال دراسة بلاغية تُبرز إمكانات هذا الخطاب في بناء التوازن النفسي لدى المتلقي، بالاعتماد على المنهج الحجاجي التداولي، كما يهدف إلى تتبّع آليات الربط وأنماط الانتقال بين المعاني داخل هاتين العلاقتين. فضلا عن تقديم نماذج تطبيقية توضّح انتظام البنية الحجاجية في الآيات القرآنية. واستكشاف بعض الإمكانات التي قد يوفرها تحليل هذه العلاقات لفهم مفاهيم تتصل بالتوازن النفسي. وإبراز القيمة المنهجية التي تضيفها الدراسة البلاغية–التداولية إلى تحليل الخطاب القرآني. واقتضت طبيعة الموضوع أن ينقسم إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين ونتائج، اهتم التمهيد بالحجاج في الخطاب القرآني وإمكانات بناء التوازن النفسي، واهتم المبحث الأول بالعلاقة الحجاجية السببية. واهتم المبحث الثاني بالعلاقة الحجاجية الاقتضائية. وقد أظهر التحليل أن هاتين العلاقتين لا تؤدّيان وظائف لغوية مجرّدة، بل تعملان بوصفهما آليات بلاغية تُنظّم مسار الاستدلال داخل النص، وتؤثّران في إدراك المتلقي وانفعاله، بما يعمّق أثر الخطاب القرآني في بناء فهمٍ متّسق يوازن بين حاجاته المعرفية والوجدانية.

الكلمات المفتاحية: الحجاج القرآني، بلاغة الحجاج، العلاقة السببية، العلاقة الاقتضائية، التوازن النفسي.

---

* أستاذ البلاغة والنقد المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والفنون، جامعة بيشة، المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: الحارثي، م. ع. ح. (2025). الحجاج السببي والاقتضائي في القرآن الكريم: دراسة بلاغية في بناء التوازن النفسي، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، 7*(4): 214-238 https://doi.org/10.53286/arts.v7i4.2938

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة (CC BY 4.0) Attribution 4.0 International، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

المقدمة:

يمتاز الخطاب القرآني بطابعه العقلي الذي يخاطب وعي الإنسان، ويعيد تشكيل تصوّراته عبر بناء لغوي وبياني محكم يقوم على تنظيم العلاقات الدلالية في نسق يستثير النظر والتأمل، ولا يقتصر هذا الخطاب على الوعظ أو الإرشاد، بل يستثمر آليات حجاجية تتدرّج في عرض المعاني وتوجيه المتلقي نحو فهم أعمق للمقاصد القرآنية.

وتُعَدّ العلاقات الحجاجية من أهم المسالك التي يكشف تحليلها عن انتظام القول القرآني، ولا سيما العلاقة السببية والعلاقة الاقتضائية؛ إذ تقدّمان نموذجين واضحين للربط بين المعاني، سواء عبر الانتقال من السبب إلى النتيجته، أو من المعنى إلى لازمه الدلالي. ويتيح تحليل هاتين العلاقتين استجلاء طبيعة بناء الحجاج في القرآن الكريم، وما قد يفتحه هذا التحليل من إمكانات لفهم طرائق تنظيم المعنى، وصلتها ببعض المفاهيم المتصلة بالتوازن الداخلي لدى المتلقي.

وقد اقتصر البحث على دراسة العلاقتين الحجاجيتين السببية والاقتضائية، لما يظهر فيهما من حضور عقلي يسمح بإجراء تحليل بلاغي منضبط، ولأنه يمكن من خلالهما تتبّع طرائق الانتقال الدلالي في النص القرآني بصورة مباشرة مقارنة ببعض العلاقات الأخرى التي يغلب عليها الطابع الوجداني أو الاستعاري. ويسهم هذا الاقتصار في تركيز الجهد على علاقات ذات بنية عقلية تتوافق مع أسئلة البحث وإطاره المنهجي.

وانطلاقًا من هذا التوجه، جاء البحث بعنوان: "**الحجاج السببي والاقتضائي في القرآن الكريم: دراسة بلاغية في بناء التوازن النفسي**"، بهدف تحليل حضور هاتين العلاقتين، وتتبع النسق الحجاجي الذي تنتظم عبره المعاني، والبحث فيما يمكن أن يتيحه هذا التحليل من فهم أعمق لبنية الخطاب القرآني، وما قد يكشف عنه من علاقات يمكن تأملها في إطار بعض المفاهيم ذات الصلة بالتوازن النفسي.

وتقوم إشكالية الدراسة على السؤال الرئيس الآتي:

كيف تتجلّى العلاقتان الحجاجيتان السببية والاقتضائية في الخطاب القرآني؟ وما الإمكانات التي قد يوفرها تحليلهما لفهم انتظام الحجاج وصلته ببعض مفاهيم التوازن النفسي لدى المتلقي، من خلال مخاطبة عقله وإعادة تشكيل تصوّراته؟

ويندرج تحت هذا السؤال عدد من التساؤلات الفرعية:

1. ما طبيعة تشكّل العلاقة السببية والاقتضائية في سياقات الآيات؟
2. كيف يُنظَّم الانتقال الدلالي داخل هاتين العلاقتين؟
3. كيف يسهم انتظام العلاقات الحجاجية في توجيه الفهم بما قد يرتبط ببعض جوانب التوازن النفسي؟

وتعود دوافع اختيار هذا الموضوع إلى عدة أسباب، من أبرزها:

1. الإفادة من مناهج البلاغة واللسانيات التداولية في تحليل العلاقات الحجاجية القرآنية.
2. الحاجة إلى دراسة مركّزة للعلاقتين اللتين تمتلكان بُعدًا عقليًا واضحًا في الخطاب.
3. قلة الدراسات التي تجمع بين الحجاج وبعض المفاهيم المرتبطة بالتوازن النفسي ضمن إطار واحد.
4. إمكانية الكشف عن طرائق تنظيم المعنى في الخطاب القرآني من خلال تحليل علاقات حجاجية عقلية.

ويسعى البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

1. تحليل العلاقة السببية والاقتضائية وفق منظور بلاغي حجاجي.
2. تتبّع آليات الربط وأنماط الانتقال بين المعاني داخل هاتين العلاقتين.

3. تقديم نماذج تطبيقية توضّح انتظام البنية الحجاجية في الآيات القرآنية.
4. استكشاف بعض الإمكانات التي قد يوفرها تحليل هذه العلاقات لفهم مفاهيم تتصل بالتوازن النفسي.
5. إبراز القيمة المنهجية التي تضيفها الدراسة البلاغية–التداولية إلى تحليل الخطاب القرآني.

وفيما يتعلق بالدراسات السابقة، فقد شهدت الدراسات القرآنية جهودًا تناولت مفهوم الحجاج وأنماطه، ومن أبرزها رسالة دكتوراه بعنوان: "العلاقات الحجاجية في القرآن الكريم" لمحمد عرابي (جامعة وهران، 2014/2013م)، التي اشتملت على عرض عام لأنواع العلاقات الحجاجية وتطبيقات محدودة لها. كما تناولت بعض الدراسات جوانب نفسية في سياقات وعظية، غير أنّ ما أمكن الاطلاع عليه لا يشير إلى دراسة تجمع بين تحليل العلاقة السببية والاقتضائية وربطها ببعض مفاهيم التوازن النفسي في إطار بلاغي واحد، وهو ما يعزز قيمة هذه الدراسة واتجاهها.

ويعتمد البحث على المنهج الحجاجي التداولي، وذلك من خلال تتبّع الآيات التي يظهر فيها حضور إحدى العلاقتين، وتحليل البنية اللغوية والدلالية التي تنتظم فيها، وبيان ما يمكن أن يتيحه هذا التحليل من فهم لانتظام الحجاج، وما قد يساعد عليه من مقاربات بحثية للتأمل في بعض مفاهيم التوازن النفسي. كما يستفيد البحث من المنهج الوصفي التحليلي في رصد العلاقات الحجاجية كما ترد في النصوص المختارة، وبيان خصائصها اللغوية والدلالية.

واقتضت طبيعة الموضوع أن تنقسم الدراسة إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين، على النحو التالي:

- المقدمة: وفيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وإشكاليته وأهدافه، والدراسات السابقة والمنهج والخطة.
- التمهيد: الحجاج في الخطاب القرآني وإمكانات بناء التوازن النفسي
- المبحث الأول: العلاقة الحجاجية السببية.
- المبحث الثاني: العلاقة الحجاجية الاقتضائية.
- الخاتمة: تتضمن أبرز النتائج، يليها ثبت المصادر والمراجع.

التمهيد: الحجاج في الخطاب القرآني وإمكانات بناء التوازن النفسي

يمثّل الحِجاج أحد المفاهيم التي اتّسع حضورها في التراث العربي الإسلامي؛ إذ استُعمل في النحو والبلاغة والفلسفة والفقه والمنطق، وتنوّعت دلالاته تبعًا للسياقات العلمية التي وُظِّف فيها. وليس الحِجاج وافدًا على الثقافة اللغوية العربية، بل تمتد جذوره في البلاغة والأصول والجدل، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ البيان البلاغي لا يُراد لزينة لغوية، بل لإقامة دلالة أوضح تُعين المتلقي على إدراك المعنى (الجرجاني، د.ت، ص26).

وفي امتداد هذا الأساس التراثي، تناولت اللسانيات المعاصرة مفهوم الحجاج بمنظور تداولي يبرز آليات التأثير وبناء الاستدلال في الخطاب، وعدّته "الآلية الأبرز التي يستعمل المتكلم اللغة فيها، وتتجسد عبرها استراتيجية الإقناع" (الشهري، 2004، ص456). وقد أدّى هذا الاتساع الاصطلاحي إلى ظهور اتجاهين رئيسين في دراسة الحجاج:

فالاتجاه الأول -وهو اتجاه بيرلمان وتيتيكا- ينظر إلى الحجاج بوصفه عملية تواصلية بين المتكلم والمتلقي تُبنى على إدارة الاستدلال وتنظيم عناصر القول بما يناسب المقام. ويعرّفان الحجاج بأنه "درسُ تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم" (صولة، 2011، ص13).

ويكشف هذا المنظور عن طبيعة ديناميكية للخطاب، تُعنى بكيفية بناء الحجة وترتيب عناصرها دون الانشغال بطبيعة الحجج في ذاتها، إذ "تدرس التقنيات الخطابية في علاقتها بوظيفتها الحجاجية التأثيرية، وشروط بنائها ونموها، وتعتبرها حججاً موجهة للدفاع عن أطروحات أو دحضها، وتبحث شروطها وآثارها دون الاهتمام بطبيعتها. إنها في نظره حجج وعناصر

الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، كلية الآداب، جامعة ذمار، المجلد7، العدد4، ديسمبر 2025 | (EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

إثبات، موجهة للإفحام أو الإقناع، بغض النظر عن الشكل الذي تتخذه" (طروس، 2005، ص44). وتغدو الغاية من الحجاج -وفق هذا التصور- "أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان. فأنجع الحجاج ما وُفِقّ في جعل حِدَّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة" (صولة، 2011، ص13).

أمّا الاتجاه الثاني -عند ديكرو وأنسكومبر- فيرى أنّ الحجاج كامِن في اللغة ذاتها، وأنّ المفردات والتراكيب تحمل بطبيعتها توجهًا حجاجيًا يهيّئ ذهن المتلقي لمسارات معينة. فاللغة ليست وسيطًا محايدًا، بل هي بنية موجّهة "تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية" (العزاوي، 2010: 56/1)، وتُبنى على المقولة: "إننا نتكلم عامة بقصد التأثير" (العزاوي، 2010: 56/1). ويُبرز هذا التصور قيمة التوجيه في الخطاب لديهما، حتى "حصرا دلالات الملفوظ في التوجيه الناتج عنه" (صولة، 2011، ص13).

ويتّضح من خلال هذين الاتجاهين أن الحجاج مفهوم يتجاوز حدود التخصصات، ويتداخل مع طبيعة التواصل الإنساني؛ إذ يأتي "كشكل من أشكال التواصل والتخاطب والحوار" (عشير، 2006، ص12).

وبما أنّ البحث يعتمد على الدراسة البلاغية، فإن البلاغة تمثّل إحدى أهم الآليات التي يُبنى بها الحجاج؛ لِما للأساليب والصور البيانية من قدرة على مخاطبة العقل واستمالة الوجدان معًا، وتنظيم بناء القول بما يوافق سياق الخطاب، إذ "يعتمد الخطاب في الحجاج على تقنيات مخصوصة لا تختص بمجال من المجالات دون غيره، فهي مطاوعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حججه وطريقة بنائها بما يتناسب مع السياق الذي يحف بخطابه" (الشهري، 2004، ص476). وقد أُشير إلى أن "الأساليب البلاغية قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة لا جمالية، بل لتؤدي وظيفة إقناعية استدلالية، من هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية" (الحباشة، 2008، ص50).

وفي ضوء هذا الإطار النظري، تكشف القراءة اللغوية للخطاب القرآني عن انتظام دقيق في العلاقات الدلالية التي تربط بين وحداته، وتنظيم محكم في طريقة بناء المعنى وتوجيه المتلقي. فقد نزل القرآن في بيئة شفهيّة تُعلي من شأن الكلمة وأثرها (الشبعان، 2010، ص52)، ونسج خطابًا قادرًا على التعامل مع جمهورين: مخاطَب مباشر زمن التنزيل، ومتلقٍّ مستمر عبر الزمن. وبرغم اختلاف السياقات، بقي الخطاب القرآني محتفظًا بطابعه الإقناعي، قائمًا على الجمع بين العقل والوجدان، ومحافظًا على عموم دلالته ورحابة مقاصده.

وتشير الدراسات إلى أنّ الخطاب القرآني قدّم نسقًا في ترتيب القول وتنظيم العلاقات الدلالية بما يتلاءم مع مقاصده ومع الخلفيات الثقافية السائدة؛ إذ " بدأ الخطاب القرآني يسري في البيئة العربية سريان تحويل وتبديل؛ فبعد أن كان طارئًا غدا متمكنًا يوجّه العقل الإسلامي سلوكًا وعملاً، اعتقادًا ونظرًا إلى العالم" (الشبعان، 2010، ص54). وقد تضمّن هذا الخطاب إشارات ترتبط بمعاني السكينة والطمأنينة والصبر والتفكر؛ وهي معانٍ حظيت باهتمام واسع في الدراسات النفسية والتربوية، ويمكن أن تُبرز علاقة بين الدلالة اللغوية والاستجابة النفسية.

ومن منظور علم النفس اللغوي، تحمل الكلمة مستويين من الدلالة: منطقيًا تُثبته المعاجم، ونفسيًا يتجلى فيما تُحدثه من استجابات دلالية وانفعالية. ويتداخل هذان المستويان عند التلقي، مما يجعل تحليل البنى اللغوية سبيلًا لفهم أثر الخطاب باعتباره بنية موجّهة ذات خصائص مستقلة (السعران، 1997، ص226). كما تشير بعض الدراسات النفسية إلى أن التوازن النفسي يقوم على حالة من الانسجام بين الوظائف المعرفية والانفعالية، وُصف بأنه "استقرار انفعالي وتوافق داخلي

يساعد الفرد على مواجهة الضغوط" (عبد الخالق، 2002، ص148)، وأنه يرتبط بـ"تنظيم الانفعال في ضوء تفسير واقعي للمواقف" (إبراهيم، 2003، ص92؛ آل موسى، 2023).

وعلى هذا الأساس، يلتقي الحجاج البلاغي -بصوره وأساليبه- مع الحجاج اللغوي -بآلياته الداخلية- في بنية قرآنية واحدة تنتظم فيها العلاقات الدلالية. وتبرز ضمن هذه العلاقات العلاقةُ السببية التي تربط بين مقدمات ونتائج داخل نسق النص، والعلاقةُ الاقتضائية التي تقوم على لزوم ذهني يجعل بعض أجزاء الخطاب تستدعي بعضها الآخر. وتمثل دراسة هاتين العلاقتين مدخلًا لفهم طرائق بناء الخطاب وانتقال المتلقي بين مستوياته؛ لأن العلاقتين تُظهران منطقية الحجة مما يقوي الأمن المعرفي لدى المتلقي.

ويُلاحظ في الدراسات اللسانية والمعرفية أن تنظيم العلاقات بين المقدمات والنتائج داخل الخطاب يُعدّ من العوامل التي تُسهم في تكوين صورة ذهنية منسجمة لدى المتلقي؛ إذ إن البنى الحجاجية القائمة على الربط السببي أو الاقتضائي تُقدّم للمتلقي مسارًا واضحًا للانتقال بين المعاني، وتحدّد موقع كل جزء في السياق العام للقول. ويسهم هذا النسق المنظّم في تقليل درجة الغموض المعرفي، وفي دعم الإحساس بالاتساق الداخلي للفكرة، وهو ما يجعل دراسة هذه العلاقات مدخلًا مناسبًا لاستكشاف الصلة بين البنية الحجاجية وبعض المفاهيم المرتبطة بالتوازن النفسي من حيث انتظام الفهم واستقرار التصور.

ومن المهم التأكيد أن التوازن النفسي المشار إليه في سياق الدراسة لا يُفترض بوصفه أثرًا مباشرًا للنص، بل يُنظر إليه بوصفه قراءة تحليلية تستكشف كيف يمكن لانتظام العلاقات الحجاجية في الخطاب القرآني أن تنتج معنى موجها يؤثر في المتلقي وبالتالي يحقق توازنا نفسيا. ومن ثمّ، تأتي دراسة العلاقات الحجاجية في القرآن الكريم محاولةً لفحص آليات بناء الخطاب وتنظيمه، واستكشاف ما قد تكشفه هذه الآليات من إمكانات تتصل بتفاعل القارئ واستقباله للخطاب.

المبحث الأول: العلاقة الحجاجيّة السببيّة و أثرها في تحقيق التوازن النفسي

تُعَدّ العلاقة الحجاجية السببيّة إحدى أبرز الآليات الدلالية التي تُبنى عليها مسارات الاستدلال في الخطاب، إذ تقوم على ربط حدثٍ بنتيجته في نظامٍ يوضّح الصلة بين المقدّمات والآثار المترتّبة عليها. ورغم أنّ السببية في أصلها علاقة تربط الفعل بأثره، فإن حضورها داخل الخطاب يمنحها بُعدًا حجاجيًا يسهم في تنظيم بنية القول وتوجيه فهم المتلقي، بما يبرز طريقة بناء المعنى وانتقاله من خطوة إلى أخرى.

وفي ضوء هذا التصور، تُطرَح السببية بوصفها من أهم الروابط التي يعتمد عليها الخطاب في ترتيب المعاني وصياغة الحجّة، وهو ما يشير إليه بيرتراند بيفون حين يرى أنّ ردّ الحقائق إلى أسبابها يُعَد فعلًا حجاجيًا يُكسب تلك الحقائق قوة إقناعية؛ إذ يجعلها أقرب إلى المبادئ الراسخة التي تستمد أثرها من وضوح أصلها السببيّ (الشبعان، 2010، ص284). فالسبب، في هذا السياق، لا يُعرض مجرد عامل تفسيري، بل يتحول إلى محور تنظيميّ يُبنى عليه تسلسل الفكرة وتماسكها.

كما تتضح الطبيعة الخاصة لهذه العلاقة في الدرس الحجاجي الحديث، الذي ينظر إليها بوصفها علاقة شبه منطقية تسعى إلى وصل القضايا برابطٍ سببيّ يجعل بعضها نتيجة لبعض، على نحوٍ يقترب من طرائق التفكير الاستدلالي (الدريدي، 2011، ص327). ويُدرج بيرلمان هذا النمط من العلاقات ضمن «وجوه الاتصال التتابعي» التي تضم صورًا متعددة من الربط بين الأحداث أو الأحكام عبر علاقات سببية أو استنتاجية تُظهر كيف يمكن لحدثٍ معيّن أن يؤدي إلى غيره، أو كيف يمكن استخلاص نتيجة من مقدمات تؤدي إليها بالضرورة أو بالاحتمال (الطلبة، 2008، ص130). ولا يقف هذا الربط عند حدود التتابع الزمني؛ بل يتجاوزه إلى انتظام دلاليّ يعتمد على اقتناع المتلقي بوحدة المسار بين السبب والنتيجة.

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

وبناءً على ذلك، يصبح تتبّع السببية في الخطاب القرآني مدخلًا إلى فهم آليات تنظيم المعنى داخله، إذ تكشف هذه العلاقة عن طرائق الانتقال بين المقدمات والنتائج، وما تتيحه من إمكانات في بناء الاقتناع العقلي من جهة، وتنظيم الاستجابة الوجدانية من جهة أخرى. ويتم ذلك في حدود ما يسمح به التحليل من بيان انتظام البنية اللغوية وعلاقاتها الدلالية داخل السياق.

وبناءً على ذلك، يصبح تتبّع العلاقة السببيّة في الخطاب القرآني مدخلًا إلى فهم آليات تنظيم المعنى داخله؛ إذ تكشف هذه العلاقة عن طرائق الانتقال بين المقدمات والنتائج من خلال ما يعتمده الخطاب من أدوات ربط دلالية، مثل الفاء للتفريع، واللام للتعليل، و"أنْ" المفسّرة، وصيغ الشرط وما في معناها. وتبيّن هذه الروابط كيفية بناء الاقتناع العقلي من جهة، وتنظيم الاستجابة الوجدانية من جهة أخرى، وذلك في حدود ما يسمح به التحليل من بيان انتظام البنية اللغوية وعلاقاتها الدلالية داخل السياق.

وانطلاقًا من هذا الأساس النظري، يمكن تتبّع نماذج قرآنية تقوم بنيتها على العلاقة السببيّة، مما يكشف عن طرائق انتظام الاستدلال داخل النص، ومن ذلك ما يتصل بصلة الذِّكر بالطمأنينة القلبية في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾[الرعد: 28].

تُقدّم هذه الآية مثالًا واضحًا للعلاقة السببيّة في الخطاب القرآني، إذ يظهر الذكر فيها بوصفه سببًا تتولّد عنه الطمأنينة، وتدلّ الباء الداخلة على «ذِكر الله» على هذه السببية التي تربط بين الفعل وأثره ربطًا دلاليًا صريحًا. ويأتي تقديم الجار والمجرور في الجملة التالية ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ ليُفيد القصر، فيُرسّخ السبب في موضعه ويحدّده تحديدًا يمنع دخول غيره. ومن خلال هذا الانتظام البنائي يتشكّل في ذهن المتلقي نسقٌ حجاجيّ يجعل الطمأنينة أثرًا مرتبطًا بما يسبقها من فعل الذكر، فيبرز التلازم الدلالي بين السبب والنتيجة.

ويبدأ السياق بتوصيف جماعة المؤمنين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليُقدَّم أثر الطمأنينة في انسجام مع صفة الإيمان، وكأن النص يجعل الذكر ممارسة ممتدّة داخل البنية الإيمانية ذاتها. والطمأنينة -كما عرّفها ابن القيّم- هي "سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه" (ابن القيم، 1441: 347/3)، ويأتي الفعل المضارع «تطمئن» ليصوِّر هذا السكون بوصفه حالة مستمرّة تتجدد مع الذكر، مما يفتح الدلالة على امتداد زمني يوازي حركة الاستقرار في القلب.

وتؤكد الجملة الثانية «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» هذه الحقيقة بأسلوب تنبيهي يُهيِّئ ذهن السامع لاستقبال مضمونها، فتعمل أداة الاستفتاح «ألا» على تعزيز حضور النتيجة وربطها بسببها. كما يحمل النص إيقاعًا داخليًا يجعل صوت «تطمئن» محاكيًا لمعنى السكون الذي يعبّر عنه، فيتضافر الصوت مع الصورة والمعنى ليولد سياقًا حجاجيًا ينسجم فيه المبنى مع المعنى.

ويُعمّق تكرار لفظ «ذكر الله» حضور السبب في السياق، فيتجدد المعنى ويتأكد الارتباط بين الذكر وأثره، وتتحول السببية من رابطة ذهنية إلى نسق لغوي تكرّسه البنية الإيقاعية للجملتين. ومن هذا المنظور، قد يُفهم من العنصر الدلالي في الآية أنّ الذكر يُقدَّم في سياقها بوصفه ممارسة تُهيِّئ لتهدئة الشعور وتخفيف الاضطراب، على نحو يسمح بتصوّر الطمأنينة كأثر ملازم لانتظام العلاقة بين الذكر والقلب.

وتنتقل العلاقات السببيّة بعد ذلك إلى مستوى آخر يتعلّق بأثر الذكر في بناء العلاقة بين العبد وربه، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾[البقرة: 152].

ويظهر في هذه الآية نمط من السببيّة يختلف عمّا سبقه؛ إذ يتحوّل الذكر من كونه سببًا لطمأنينة القلب إلى كونه سببًا يُقابَل باستجابة إلهية، هي ذكر الله لعبده. وفي تفسير أصل الذكر بيّن الإباري أن معناه «التنبه للمذكور والتيقظ له»، وأن إطلاقه على القول اللساني جاء من دلالته على حضور الذكر القلبي (الإباري، 1405: 127/9). ويُبيّن هذا التفسير الأساس الذي تتكوّن عليه علاقة السبب بالنتيجة في هذه الآية، إذ يُعد الذكر فعلًا يستدعي أثرًا يقابله.

ويُبنى هذا النسق عبر صياغة بلاغية موجزة شديدة الإحكام؛ فالفاء في «فاذكروني» تفيد التعقيب والربط، وجاء الأمر بصيغة مباشرة تُوجِّه المخاطَب إلى فعل فوريّ. ثم تأتي جملة «أذكركم» في مقابلة لفظية دقيقة تُبرز العلاقة الحجاجية بين الفعل وأثره. ومن خلال هذا التوازي تتجلى السببيّة في صورتها الواضحة؛ إذ يُقدَّم الذكر على أنه فعلٌ يُقابله ذكر من الله لعبده، في علاقة تقوم على التلازم الدلالي.

ويزداد البناء قوةً حين تُعطف عليه جملة «واشكروا لي»؛ فالشكر والذكر في الخطاب القرآني متلازمان في دلالتهما، أحدهما يمهّد للآخر ويُكمله، وهو ما يجعل السياق ممتدًا في اتجاه واحد من القرب والرعاية. ثم يأتي النهي «ولا تكفرون» بوصفه حدًّا فاصلًا بين سلوكين: الشكر الذي يفتح أبواب الفضل، والكفر الذي يقطع هذه الصلة. ويُفهم من هذا النسق أنّ العلاقة السببيّة هنا تتجاوز مجرد الربط بين فعل ونتيجة، لتُبنى عليها وظيفة تربوية تنظّم العلاقة الروحية والسلوكية للإنسان.

ويحتضن النص -على إيجازه- طبقات دلالية عميقة؛ فالمقابلة بين الفعلين «اذكروني» و«أذكركم» يبرز حيوية العلاقة بين الطرفين. كما أن حذف المفعول في «أذكركم» يوسِّع دائرة الدلالة، فيُفتح الذكر الإلهي على معانٍ متعدّدة: الرحمة، والحفظ، والهداية... دون تحديد نوعٍ معيّن. وهذا الاتساع يمنح السياق قدرة على احتواء حالات نفسية متباينة وفق وعي المتلقي.

أما الشكر، فيُقدَّم بوصفه سلوكًا يُظهر أثره في بناء إدراكٍ متزن لنعم الله، ويُفهم من انتظام السياق أنه يعمّق علاقة القرب ويُرسّخ شعور الاتساق الداخلي. ومن ثمّ يتكوّن من مجموع هذه العناصر نسق سببيّ متكامل يُبرز طريقة الخطاب القرآني في تنظيم العلاقة بين الذكر والشكر من جهة، وبين أثرهما الروحي والسلوكي من جهة أخرى.

وتتخذ العلاقة السببيّة في هذا الموضع بُعدًا أوسع يتعلّق بأثر الإنفاق في إعادة تنظيم المشاعر ورفع ثقل الخوف والحزن، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾[البقرة: 262].

تُقدّم الآية هنا نسقًا سببيًا ينتقل من دائرة العمل المالي إلى آفاق تتصل بالبناء السلوكي والدلالي داخل النفس؛ فالإنفاق -متى خَلُص من المَنّ والأذى- لا يُعرض مجرد فعل اقتصادي، بل يُصاغ في سياقٍ يبيّن ما يترتّب عليه من آثار مترابطة. ويظهر ذلك في التدرج البلاغي للنص: فالجملة الأولى ترسم الفعل «يُنفِقون أموالهم في سبيل الله»، والجملة الثانية تُقيّد هذا الفعل بما يكفل صفاءه «ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى»، ثم تأتي النتيجة «لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون». وبهذه البنية تتشكل علاقة سببية واضحة تربط بين العمل وأثره ضمن نسق حجاجي متماسك.

وتحمل «ثم» في قوله «ثم لا يتبعون» دلالة تتجاوز ترتيب الأحداث الزمني إلى ما يُعرف بالتعقيب الرتبي؛ أي الانتقال من مرتبة الفعل إلى مرتبة تهذيبه وتنزيهه، فكأن قبول الإنفاق مشروطٌ بتنقيته من شوائب الرياء والمنّة. ونفي المنّ والأذى في

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

السياق ليس تفصيلًا ثانويًا، بل عنصرًا مؤثرًا في اكتمال السببية؛ إذ إنّ المنّ يجرح معنى العطاء، والأذى يُفسده من أصله، ولذلك جعل النص تنزيه الفعل شرطًا لتمام الأثر.

ويأتي قوله تعالى «لهم أجرهم عند ربهم» في جملة اسمية تفيد الثبات والاستقرار، مما يعرض الجزاء عرضًا يُشعر المتلقي بقوّته ورسوخه. ثم ينتقل السياق إلى جملة «ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»، فيجمع بين نفي الخوف وما يلابسه من توقع، ونفي الحزن وما يصاحبه من انفعال، على نحو يكشف عن تمام دائرة الأمان. ويمكن أن يُفهم - في ضوء انتظام هذا السياق - أنّ الإخلاص في العطاء يُهيّئ لإدراك نفسيّ أكثر اتزانًا، يُخفِّف من ثِقَل الخوف والحزن، دون الجزم بأثر مباشر، بل وفق ما يدل عليه ربط السبب بنتيجته داخل الخطاب القرآني.

ويبرز التوازي بين الجملتين «لا خوف عليهم» و«ولا هم يحزنون» إيقاعًا لغويًا متناسقًا يسهم في رسوخ المعنى، كما يُوحي اختيار صيغة المضارع في «يحزنون» باستمرار تجدد هذا النفي كلما تجددت أسباب الطمأنينة. ومن هذا المنظور ينتقل النص بالمتلقي من تصوّر الإنفاق بوصفه خسارة محتملة إلى فهمه باعتباره بابًا إلى اتساع داخلي. وقد يُفهم من هذا السياق أن الإنفاق -حين يُؤدَّى على هذا الوجه- يتحول إلى ممارسة تُسهم في تهذيب دوافع النفس وتخفيف توترها، وتعيد تشكيل علاقتها بالمال عبر بنية سببية تتداخل فيها الأخلاق بالوجدان، والسلوك بالمعنى، فيتجاوز أثرها حدود التعامل المالي إلى إمكانات أوسع في تنظيم الشعور والاتزان الداخلي.

وإلى جانب السببيّة المتصلة بالعطاء، يظهر نمط آخر يعالج إدارة الأزمات ومواجهة الشدائد من خلال صياغة تربط بين الفعل الشعوري والفعل التعبدي، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾[البقرة: 153].

يفتتح النص بالنداء «يا أيها الذين آمنوا» في تركيبٍ يستثير الوعي ويُهيّئ المخاطَب لتلقّي التوجيه، ويضفي على الآية نبرة جِدٍّ تستدعي الانتباه قبل بيان العلاقة بين السبب والنتيجة. ثم يأتي الأمر «استعينوا» ليحوِّل الصبر والصلاة من صفات ذهنية إلى ممارسات عملية، تُقدَّمان في الخطاب بوصفهما وسيلتين لتحصيل العون الإلهي.

ويتّسم تركيب «استعينوا بالصبر والصلاة» بإيجازٍ يربط الوسيلة بالغاية مباشرة، على نحوٍ يُقرّب المعنى إلى ذهن المتلقي. فالصبر -بما يتضمنه من ضبط للنفس وثباتٍ على البلاء- يتحول في هذا السياق إلى فعلٍ يُكتسب بممارسة واعية، والصلاة -بما تشتمل عليه من تضرّع وخضوع- تُقدَّم جسراً يعيد ترتيب الداخل ويُنشئ صلة موصولة بالله. وبذلك تتجلى السببيّة في صياغة محكمة؛ إذ تُعرَض الوسيلتان عرضًا مباشرًا بوصفهما طريقًا للاستعانة، لا مجرد فضيلتين أخلاقيتين.

ثم تأتي جملة «إن الله مع الصابرين» جوابًا حجاجيًا يبيّن ما يترتب على الصبر، وقد أكّدت الجملة بـ«إنّ» لتثبيت مضمونها. والمعيّة هنا ليست معيةً مكانية، بل معية نصر وتأييد ولطف، تُعرض بوصفها النتيجة المترتبة على الصبر، وبذلك يتحقق الربط بين السبب وأثره في بنية دلالية واضحة.

ويبرز هذا النسق مثالًا لما يسميه البلاغيون «التوجيه مع الحجة» (الجرجاني، 1992، ص109، 223)، حيث يأتي الأمر «استعينوا» ثم يُبيّن علّته في «إن الله مع الصابرين». وبذلك يلتئم الطلب مع التعليل في حركة خطابية متجانسة تعزز الاقتناع وتقوّي أثر التوجيه.

أما في بُعده النفسي، فإن انتظام العلاقة بين الصبر والمعية الإلهية -كما يقدمه النص- قد يُفهم منه أنه يهيّئ للمتلقي تصورًا لا يواجه فيه الضيق منفردًا، بل يُمنح أدوات داخلية (الصبر) وروحية (الصلاة) تُعينه على تجاوز الشدة. ومن هذا المنظور يمكن أن يُستفاد من البناء الحجاجي للآية أنه يفتح أمام المتلقي سبيلًا لإدراك الاتزان حتى وسط الأزمات.

ويأتي قوله تعالى في آية أخرى ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾[الأنفال: 46] لتثبيت المبدأ نفسه، في تكرار يبرز مركزية الصبر في بناء العلاقة السببيّة بين فعل الإنسان ومعية الله. ويُسهم هذا التكرار في ترسيخ المعنى، وفي توكيد ارتباط الصبر بالعون، مما يعمّق أثر العلاقة في مواجهة الشدائد ويُظهر قدرتها على إعادة تشكيل التوازن الداخلي وفق ما يسمح به انتظام السياق.

وتتسع دائرة السببية لتشمل علاقة تصحيحية بين الفعل الإيجابي وأثره على السلوك والخطأ، في عرض بلاغي يقوم على مبدأ الإزالة والاستبدال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[هود: 114].

يبدأ النص بالتوكيد بـ «إنّ» ليثبّت الحقيقة التي سيعرضها، ثم يأتي الفعل المضارع «يذهبن» ليشير إلى أن ذهاب السيئات ليس حدثًا آنيًا ينتهي بانتهاء الفعل الصالح، بل هو أثر متجدّد مستمرّ تتحقق فاعليته كلما تجدد العمل. وهذه الحركة الزمنية التي يشير إليها المضارع تفتح أمام المتلقي أفقًا واسعًا يجعل الحسنات ليست مجرد تعويض، بل علاجًا مستمرًا يُقاوم أثر الخطأ ويعيد للنفس اتزانها.

وتقوم الآية على مقابلة ضمنية بين «الحسنات» و«السيئات»، وهو تقابل يذكّر بصورة الضوء والظلمة؛ إذ يُقدّم النص الحسنات في موقع القوة الفاعلة، بينما يجعل السيئات في موقع المنفي الذي يُزاح ويُزال. وفي هذا الجناس المعنوي نبرة بلاغية تَشي بتغليب جانب الخير على جانب الخطأ، بحيث يتحول الفعل الصالح إلى طاقة تدفع أثر السوء خارج مساحة الوعي والسلوك. كما أن تركيب الجملة الاسمية في بدايتها يمنحها ثباتًا وديمومةً، مما يرسّخ المعنى في وجدان السامع.

وتتجلى السببية هنا في أعمق صورها؛ فالحسنات لا تُقدَّم علاجًا خارجيًا يُضاف إلى حياة الإنسان، بل تُعرض بوصفها قوة داخلية تُعيد تشكيل الآثار الباطنة للذنب. وبهذا المعنى، فإن العلاقة بين الحسنات والسيئات لا تقوم على مجرد حسابٍ عدديّ (الزمخشري، 1407: 434/2)، بل على مبدأ نفسي دقيق يجعل الفعل الخيّر يطهّر النفس من تراكم السوء ويعيد إليها نورها وصفاءها. وهذا يشكّل بعدًا حجاجيًا يُقنع المتلقي بأن الطريق إلى تجاوز الخطأ ليس في الانكفاء، بل في الفعل المضادّ الذي يُذهب أثره. وبهذا تقدم الآية نموذجًا علاجيًا قد يُسهم في تحرير الفرد من ثقل الذنوب الذي يوقعه في دوائر جلد الذات والاضطراب، فتُعيد إعادة تشكيل تجربة الخطأ عبر تقديم بديل فعّال هو «الحسنة» التي تذهب أثر السوء. وبهذا المعنى يتحوّل الخطاب من توجيه نظري إلى ممارسة عملية تتيح للإنسان استعادة توازنه الداخلي كلما تعثّر، فيتحول القلق المرتبط بالذنب إلى حركة إيجابية نحو فعل الخير، مما يعمّق الشعور بالقدرة على التغيير والتحسن.

وتنتقل السببيّة إلى مستوى أوسع يتعلّق بالحياة كلّها، إذ يُصوَّر العملُ الصالح بوصفه مفتاحًا لحياةٍ طيبة ممتدّة في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٩٧﴾[النحل: 97].

وتُبرز الآية بنيةً حجاجية قائمة على الشرط وجوابه؛ فالجملة الشرطية تُعدّ من أهم الأبنية التي يُفصح بها القرآن عن العلاقة السببية، لأنها تعرض الشرط مقدمةً تُبيّن ما يترتب عليه من جزاء، ويأتي جواب الشرط نتيجةً تتأسس على مضمون

المقدّمة. ووفق هذا التصوّر يتشكّل في الآية نسقٌ سببيٌّ محكم يربط بين العمل الصالح المقرون بالإيمان وبين الحياة الطيبة وما يلحق بها من الجزاء الأخروي.

ويبدأ الخطاب بأسلوب شرط عام يشمل جميع المكلّفين: «مَن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن»، وهو تركيب يقدّم الشرط بوصفه قانونًا روحيًا ذا طابع كلي، لا حالةً استثنائية أو ظرفًا خاصًا، مما يعزّز اتساع الدلالة وشمولها. ويأتي جواب الشرط: «فلنحيينه حياةً طيبة» مؤكّدًا باللام والنون الثقيلة، فيُعرض الوعد عرضًا قويًا يضفي عليه ثبوتًا ورسوخًا. كما يسهم تنكير «حياة طيبة» في فتح باب الدلالة على معانٍ واسعة مثل: السكينة، والرضا، والاستقرار، والبركة... دون تحديدٍ يقيّد معناها أو يحصره.

ولا تقف السببية في الآية عند حدود الأثر الدنيوي، بل تمتد لتربط بين أثر العمل الصالح في الحياة وبين جزائه في الآخرة: «ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون». وبهذا يجتمع الوعدان -الدنيوي والأخروي- في سياق واحد، فيتّسع النسق السببيّ ليشمل حاضر الإنسان ومستقبله. وقد يُفهم من انتظام هذا البناء أنّ العمل الصالح يترك أثره في الداخل الإنساني قبل أن يتّجه أثره إلى المصير الأخروي، مما يمنح العلاقة السببيّة بُعدًا وجدانيًا يتسق مع طبيعة الخطاب.

وعليه، تبدو الحياة الطيبة -في ضوء هذا التركيب- ثمرةً لعمل صالح مقترنٍ بالإيمان، فينشأ التوازن النفسي من انتظام العلاقة بين السبب والنتيجة، لا من الظروف الخارجية المتقلّبة. وبهذا تُظهر الآية قدرة الخطاب القرآني على إعادة تنظيم الداخل الإنساني عبر علاقة شرطية محكمة تجمع بين الحجة، والوظيفة الروحية، والبناء الدلالي المتماسك.

وتنتقل الآيات إلى نموذج آخر يكشف حضور السببيّة في سياق الأزمات والضيق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: 2–3].

تقدّم هذه الآية بنية سببية مركّبة تتداخل فيها التقوى والتوكّل بوصفهما عاملين يُسهمان -وفق انتظام السياق- في فتح المخرج وتيسير الرزق وتحقيق الكفاية. وتبدأ الآية بجملة شرطية: «ومن يتق الله يجعل له مخرجًا»، فتجعل التقوى سببًا لما يترتب عليها من فعلٍ إلهي هو «يجعل». ويتجاوز هذا الفعل دلالته الحسية إلى معنى أوسع، إذ يدلّ على فتح أبواب غير مألوفة أمام الإنسان، على نحو يبرز العلاقة بين السبب والنتيجة في إطار دلالي واضح: فالتقوى ممارسة لها أثر يُتصور ضمن بنية النص، وليست فضيلة معلّقة لا أثر لها.

ويأتي التوسع البلاغي في قوله تعالى: «ويرزقه من حيث لا يحتسب»، حيث لا يُعرض الرزق بوصفه زيادة مباشرة فحسب، بل كرزق مفاجئ يأتي من حيث لا يتوقعه الإنسان. ومن منظور حجاجي، ينتقل النص بالمتلقي من التصور الواقعي القريب إلى أفق أوسع تتجاوز فيه آثار التقوى حدود الحساب البشري. ويستفاد من تركيب «من حيث لا يحتسب» سعة في الدلالة تُظهر أن الفرج قد يأتي من موارد لا يقدّرها الإنسان في ظنّه القريب.

ثم ينتقل النص إلى مستوى آخر من السببيّة في قوله تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه»؛ حيث يُعرَض التوكّل سببًا للكفاية، وتأتي الجملة الاسمية «فهو حسبه» لتفيد الرسوخ والديمومة، فيُتصوَّر أن اعتماد المتوكل على الله يكفيه في كل شأنه على نحوٍ يتسق مع مفهوم الكفاية المطلقة في الخطاب.

ويقف المتلقي أمام مجموعة ألفاظ ذات حمولة دلالية قوية: «مخرجًا»، «يرزقه»، «لا يحتسب»، «حسبه»؛ وكلها كلمات ترتبط بالحركة الداخلية للإنسان بين الضيق والرجاء. فـ«المخرج» صورة للخلاص، و«الرزق» صورة للعطاء، و«من

حيث لا يحتسب» صورة لاتساع الاحتمالات، و«حسبه» صورة للأمان. ويؤدي هذا التجاور إلى بناء تصويريّ متكامل تظهر فيه السببيّة بوصفها آلية تنظّم العلاقة بين الفعلين التقوى والتوكّل وبين آثارهما كما يُفهم من السياق.

ومن هذا المنظور يمكن أن يُستفاد من انتظام الآية أنها تُقدّم نموذجًا يُسهم بحسب ما يتيحه البناء الدلالي في إعادة تشكيل وعي الإنسان بالأزمات، عبر ربط الضيق بمخارج الفرج، وربط الخوف بكفاية التوكّل، دون الجزم بأثر نفسي مباشر، وإنما في حدود ما تسمح به البنية الحجاجية للنص.

ويتناول الخطاب القرآني في سياقٍ آخر علاقةً حجاجيةً سببيّةً تتصل بالنصرة والنصر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد: 7].

تتخذ السببيّة في هذه الآية بُعدًا جماعيًا يتجاوز الفرد إلى الأمة، إذ يُصاغ الخطاب على هيئة شرط يربط بين نصرة المؤمنين لدين الله وبين ما يترتب عليها من نصرٍ وتثبيت. ويبدأ النص بالنداء «يا أيها الذين آمنوا» في أسلوب يُهيّئ المخاطَبين لاستقبال التوجيه، ويضفي على الأمر نبرة جدّية تنسجم مع طبيعة التكليف الجماعي. ثم تأتي أداة الشرط «إن» لفتح دائرة السببية بوضوح، فيُقدَّم فعل النصرة بوصفه سببًا تُبنى عليه النتيجة الإلهية.

وقد ورد في تفسير الآية أنها نزلت -على قول- في سياق ما وقع يوم أُحد، وقيل أيضًا إنها في القتال عامّة (الطبري، 1422، ج13، ص54). وهذا التردد في التحديد يوسّع دلالة الخطاب، فيجعله صالحًا لكلّ جماعة مؤمنة تنصر دين الله، ويمنحه طابع العموم والامتداد.

ويحمل قوله تعالى «تنصروا الله» بعدًا بلاغيًا لافتًا؛ إذ نُسب النصر إلى الله مجازًا، والمراد نصرة دينه (الرازي، 1420: 42/28). وهذا الإسناد يمنح الفعل رفعةً ويُكسبه شرفًا خاصًا، لأن إسناد الفعل إلى الله يُعطيه وزنًا معنويًا يرسخ في النفس. ويأتي جواب الشرط «ينصركم» بصيغة المضارع للدلالة على تجدّد الأثر واستمراره، ثم تُعطف عليه الجملة «ويثبّت أقدامكم» لتقديم نتيجة ثانية مكمّلة للنصر، فيجتمع الفعلان في نسق يشمل الخارج (النصر) والداخل (التثبيت).

ويقوم هذا التركيب على مقابلة دلالية دقيقة بين «ينصركم» و «يثبّت أقدامكم»؛ فالأول يشير إلى فعل يقع في ميدان المواجهة، والثاني يشير إلى أثر يُعالج اضطراب النفس ويوطّدها. وهذا التوازن البلاغي بين الحركتين يُنشئ صورة حجاجية تجعل النتائج ممتدة على المستويين: مستوى الفعل الخارجي، ومستوى التوازن الداخلي. كما أن تقديم جواب الشرط مباشرة بعد أداة الشرط يعزز معنى الاقتران بين السببية والنتيجة، ويقرب أثر النصر من سببه في ذهن السامع.

ويُفهم -في ضوء انتظام السياق- أن هذا الوعد يُعيد للجماعة المؤمنة الشعور بالجدوى والمعنى؛ فالنصرة ليست جهدًا بلا مقابل، بل فعل موصول بوعد إلهي يمنح القوة ويُربي الثبات. وقد يُستفاد من اقتران النصر بالتثبيت أن التركيب يفتح المجال لتصوّر أثر يتصل بالتوازن الداخلي للجماعة، في مقابل مخاوف الفشل أو الانكسار.

وتبلغ العلاقة السببيّة درجة من الصراحة والوضوح يجعل الارتباط بين الدعاء والاستجابة مباشرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60].

ويبدأ النص بعبارة ذات أثر خاص: «وقال ربكم»، فإضافة الربّ إلى المخاطبين تُنشئ جوًّا من العناية والقرب، وتُهيّئ المتلقي لتلقّي الوعد الآتي. ثم يأتي الأمر «ادعوني» في صياغة موجزة تجمع بين النداء والطلب، فيُقدَّم الدعاء بوصفه فعلًا مُتاحًا للجميع، لا يحتاج إلى شرطٍ معقّد ولا إلى واسطة، وإنما إلى توجّه صادق.

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

وتأتي جملة الجزاء «أستجب لكم» في مقابلة مباشرة للأمر الأول، في إحكام بلاغي يرسّخ العلاقة السببيّة بين الفعل وأثره. فالتوازي بين الفعلين «ادعوني» و«أستجب» يُحدث انسجامًا صوتيًا ودلاليًا يشبه الجناس المعنوي، ويُبرز الانتقال من الطلب إلى الإجابة بوصفه انتقالًا طبيعيًا وفق انتظام الخطاب. كما أنّ عدم تقييد الاستجابة بنوع معين أو زمن محدد يفتح الوعد على احتمالات واسعة، تُفهم منها مرونة الاستجابة الإلهية ومناسبتها لحال الداعي: إعطاء، أو دفع بلاء، أو تعويض بخير.

ويُبنى هذا التركيب على قدر من الإيجاز المعبّر؛ فالجملة المختصرة تُجسّد ما يسمّيه البلاغيون «الاقتصاد في اللفظ مع وفرة المعنى»، إذ تختزل علاقة روحية عميقة في عبارتين قصيرتين. كما أن حذف حرف العطف بين الشرط وجوابه يُقرب النتيجة من سببها، ويجعل الاستجابة في موقع التعقيب المباشر على الدعاء، وهو أسلوب حجاجي قوي يعمّق الثقة بالوعد الإلهي، ويُبرز أثر الدعاء في وعي المتلقي. ومن هنا يمكن أن يُستفاد -وفق بناء الآية- أن الدعاء يُقدَّم ممارسة تُحرّر الإنسان من شعور العجز، وتفتح أمامه أفق التوجّه والرجاء.

وبناءً على ما سبق، يُظهر تتبّعُ الآيات المدروسة أن العلاقة السببيّة في الخطاب القرآني ليست مجرد رابطة منطقية بين فعل ونتيجته، بل تأتي ضمن بناء بلاغيّ محكم يسهم في تنظيم الوعي وإحداث تفاعل بين العقل والوجدان. فالسببية في الآيات تتجاوز الربط الذهني البسيط، لتُصبح إطارًا يوجّه حركة الإنسان ويُفسّر له انسجام الجزاء مع العمل.

وقد كشفت النماذج المختارة أن هذه العلاقة تُتيح للمتلقي تصورًا متدرّجًا لبناء التوازن الداخلي؛ فهي تُبرز أدوات عملية لاستدعاء السكينة -كالذكر، والصبر، والإنفاق، والدعاء، والتوكّل- وتقدّم في الوقت نفسه وعودًا إلهية تُفهَم من السياق بوصفها امتدادًا للجهد الإنساني في مواجهة الخوف، والضيق، وتقلّبات الواقع. وبذلك تُعيد العلاقة السببية تشكيل تجربة الإنسان تجاه ذاته وتجاه عالمه، كلما تفاعل مع الخطاب القرآني فهمًا واستجابةً، فيظهر أثرها في ثبات القلب واتساقه، وفي اتّساع رؤيته لمعاني الرحمة والرعاية والمعية الإلهية.

المبحث الثاني: العلاقة الحجاجية الاقتضائية و أثرها في تحقيق التوازن النفسي

تُعَدُّ العلاقةُ الحِجاجيّةُ الاقتضائيّة إحدى الآليات التداوليّة التي تربط بين مقدّمة ونتيجة برابطٍ من اللزوم الذهنيّ؛ إذ يقتضي الجزءُ الأول من الخطاب الجزءَ الآخر لإتمام المعنى وتحقيق الإقناع. وهي علاقةٌ تُظهِر التلازمَ بين الفكرة وما تستلزمه في ذهن المتلقّي، وتتنوّع صورُها تبعًا للسياق الحجاجي داخل النص.

وفي ضوء الدرس البلاغي والحجاجي، تُعرَّف العلاقة الاقتضائيّة بأنّها تلازم دلالي ينشأ من انتظام البنية اللغويّة بحيث يستدعي جزءٌ من الخطاب جزءًا آخر لزومًا ذهنيًّا، لا على سبيل التعليل السببي، بل على أساس الارتباط الداخلي الذي تُنشئه بنية القول وسياقه. فالاقتضاء يقوم على اللُّزوم لا على السببية؛ إذ لا يُفهَم الجواب بوصفه نتيجةً معلَّلة بسببٍ قبله، بل بوصفه لازمًا من لوازم المعنى تقتضيه حركة الخطاب.

ومن هنا يختلف الاقتضاء عن السببيّة اختلافًا جوهريًا: فالسببيّة علاقة تعليل تربط بين المقدمة والنتيجة، بينما يقوم الاقتضاء على لزوم ذهنيّ بين معنيين يُستحضَر أحدهما من خلال انتظام البنية الخطابيّة للآخر، دون أن تكون هناك علّة مباشرة. ومن ثَمّ، فالاقتضاء علاقة تلازم، في حين أنّ السببيّة علاقة تعليل واستنتاج؛ وهذا ما يمنح الاقتضاء طبيعةً شبه منطقية تستند إلى منطق المعنى لا إلى وقوع الحدث في الزمن.

ويمثّل الاقتضاء أحد مظاهر التفكير الاستدلالي في الخطاب القرآني؛ إذ يتجلّى في صور حجاجيّة تكشف عن ترابط دلالي بين الفعل وما يستلزمه، وبين الموقف وما يُفهَم منه من أثر، دون أن يكون ذلك ترابطًا زمنيًا أو سرديًا، بل لزومًا دلاليًا

يجعل بعض المعاني تُستحضَر تلقائيًا من خلال السياق. ومن هذا المنظور، تُبنى العلاقة بين المقدّمات والنتائج في النص على أساس عقليّ يُقارب النَّسَق المنطقي في انتظامه، وإن ظلّ في جوهره علاقةً مبنيّة على فهم المتلقّي لطبيعة الخطاب.

وتحظى هذه العلاقة بأهميّة خاصّة في الدرس الحجاجي؛ إذ تتجاوز السببيّة لأنها تُنشئ ضربًا من التلازم بين الحُجّة والنتيجة، فتجعل الحُجّة تقتضي النتيجة اقتضاءً يَسِم البناءَ الحجاجي بقدر عالٍ من الإلزام الداخليّ (الدريدي، 2011، ص335). ويظهر ذلك في قدرة المتكلّم على تشييد تلاحم دلالي يجعل ما يُقدَّم من نتائج منطقيًّا ومقبولًا، لا لسلطة خارجيّة، بل لانسجامه مع بنية القول.

وتُعَدّ العلاقةُ الاقتضائيّة -في ضوء ذلك- من أقوى العلاقات الحجاجية؛ لأنها تربط طرفي الخطاب (الحُجّة/النتيجة) ربطًا يجعل أحدهما يقتضي الآخر بالضرورة، فيغدو الاقتضاء عنصرًا مشتركًا بين المتخاطبين، ويُصبح القبول به هو الامتداد الطبيعي لمنطق الخطاب (صمود، د.ت، ص373).

وتُعدّ أدواتُ الشرط من أبرز الروابط القادرة على إظهار صلة الاقتضاء؛ إذ تُنشئ تلازمًا محكمًا بين طرفي الجملة الشرطية، فيغدو وجودُ الشرط مستدعيًا لوجود الجواب في نظام ذهني متماسك (الشهري، 2004، ص981). وهذا الترابط يجعل الجملة الشرطية بناءً حجاجيًا يقوم على اللزوم. وقد ألمح البلاغيون العرب إلى هذا المعنى وإن لم يعبّروا عنه بمصطلح الاقتضاء؛ إذ قرّر ابن جني أن حقيقة الشرط وجوابه تقوم على أن يكون الثاني مسبَّبًا عن الأول، كما في قوله: "إن زرتني أكرمتك"، فالكرامة مسببّة عن الزيارة (ابن جني، 1999: 178/3). وهي صياغة تمثّل جوهر الاقتضاء في بُعده الحجاجي.

ويمكن أن يتجلّى هذا اللزوم في التراكيب الشرطية المضمرة أيضًا، وهو ما تشير إليه بعض الدراسات التي تقرّر أنّه: "كما قد يرد الحجاج في التراكيب الشرطية المضمرة، والتي تتضح من خلالها العلاقة المنطقية المتلازمة بين طرفين، إذ يلزم ثبوت التالي ثبوت المتقدم" (الشهري، 2004، ص447). ويبيّن هذا التصوّر طبيعةَ الاقتضاء بوصفه تلازما داخليًا بين المعاني، لا يقوم على التعليل الصريح، بل على انتظام البنية الخطابية وربطها بين المقدّمات والنتائج في حركة دلاليّة واحدة.

وتُسهم العلاقة الاقتضائيّة في الخطاب القرآني في بناء صورة دلاليّة متماسكة تقوم على ترابط المعاني الظاهرة بما يقتضيه السياق من دلالات ضمنيّة. وهذا الاتساق الداخلي يمنح الخطاب صيغته المحكمة ويزيل التناقض بين المقدمات ونتائجها، مما يجعل المتلقي أكثر قدرة على استقبال المعنى بدرجة من الهدوء والانتظام، تبعًا لتفاعله مع السياق.

ومع أنّ الشرط قد يُستعمل حجاجيًا لبناء علاقة تعليل -كما ظهر في المبحث الأول- فإن حضوره هنا لا يدلّ على التعليل، بل على لزومٍ دلاليّ يربط بين طرفي الشرط والجواب. وبهذا يختلف الاقتضاء عن السببيّة؛ فالأولى علاقة تلازم، والثانية علاقة تعليل، وإن اشتركتا في البنية الشرطية

ومن هذا المنظور، قد تُسهم العلاقة الاقتضائيّة بوصفها آلية تنظّم المعنى وتكشف لوازمه في تهيئة المتلقي لفهمٍ أكثر استقرارًا للخطاب، وهو أثر يرتبط بدرجة الوعي بالسياق وكيفية التلقي الفردي.

وبناءً على هذا الأساس النظري، يمكن الآن الانتقال إلى تحليل النماذج القرآنية المختارة التي تُجسِّد هذه العلاقة الاقتضائيّة، واستكشاف طرائق انتظامها داخل الخطاب وما تكشفه من لوازم دلاليّة.

وبعد بيان طبيعة الاقتضاء بوصفه لزومًا دلاليًا ينظّم المعنى، يتجه الخطاب القرآني إلى صورة تكليفية تُظهر كيف يُنشئ الاقتضاء حالة من الطمأنينة تستند إلى عدل التشريع، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة: 286].

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

تكشف الآية عن قاعدة عقدية راسخة تُقرر أن التكليف الإلهي لا يقع إلا في حدود الطاقة الممكنة. ويقوم تركيب النفي ثم الاستثناء على حصرٍ دلالي يحدّد مجال التكليف تحديدًا يُفهم منه أن الشريعة مرتبطة بوسع الإنسان ارتباطًا يُنشئ لزومًا ذهنيًا بين الحكم وقدرة المكلّف، دون أن يعتمد ذلك على تعليل خارجي، بل على الانتظام الداخلي للقول. ويشكّل هذا الحصر بنيةً حجاجية تُبرز انسجام التشريع مع الإمكان البشري، إذ يتولّد من صياغة «لا يكلف» ثم «إلا وسعها» تلازم يجعل الحكم مستندًا إلى ميزان دقيق يقوم على عدلٍ مضمر في البنية اللغوية. أما لفظ «نفس» فجاء نكرة للتعميم، وليشير إلى ذات الإنسان بكل ما فيها من اختلاف في القدرة والتحمل.

وقد دلّ المفسرون على هذا المعنى حين قرّروا أن التكليف مرتبط بالقدرة، وأن الله لا يفرض على عباده ما يعجزون عنه (ابن عاشور، 1404: 433/2)، وهو بيان ينسجم مع طبيعة الاقتضاء الواردة في الآية؛ إذ لا تُعرض القدرة سببًا للتكليف كما في السببية، بل تأتي مقدّمة لاستحضار لازمٍ دلاليّ تُفهم منه حكمة التشريع واتّساقه مع طبائع النفوس. ويتّضح هذا المعنى من انتظام التركيب بين الفاعل «الله» والمفعول «نفسًا»، في توازٍ لفظيّ يجمع بين سلطان التشريع وموضوعه، وتنبثق منه دلالة الرحمة التي تُفهم من سياق الحصر أكثر مما تُفهم من لفظٍ صريح يدلّ عليها.

ويُظهر هذا الانتظام اللغوي أنّ العلاقة هنا علاقة اقتضاء خالص؛ فالتشريع -وفق صياغة الآية- يقتضي مراعاة الوسع البشري، والوسع يقتضي ألا يتجاوز التكليف حدوده الطبيعية. وهذا التلازم لا يقوم على علاقة العلة والمعلول، بل على ما تُنشئه الصياغة من لزومٍ دلالي يجعل الحكم منسجمًا مع مقدّماته على نحوٍ شبه منطقي. ومن هذا المنظور يُمكن أن يتصوّر المتلقي وفق درجة وعيه بالسياق أن التكليف الإلهي لا يتصادم مع قدرته، مما قد يخفف ما يعتري النفس من قلقٍ تجاه ثِقَل التكليف أو الخوف من التقصير؛ إذ يهيّئ انتظام البنية في الآية لقدر من الاتساق الداخلي يُفهم بوصفه احتمالًا يتولّد من طبيعة الخطاب لا بوصفه أثرًا نفسيًا حتميًا.

وهكذا تُظهر الآية نموذجًا دقيقًا للاقتضاء الحجاجي الذي يربط بين بنية التشريع وبنية الوعي، ويكشف عن انتظام يجعل الحكم منسجمًا مع طاقة الإنسان انسجامًا يُبنى في ذهن المتلقي من خلال الصياغة نفسها، لا عبر تقرير خارجي، وبذلك يكتمل حضور العلاقة الاقتضائية في سياق يُبرز عدل الشريعة ورفقها ضمن بناء لغوي متماسك.

وينتقل الخطاب إلى مستوى أعمق يكشف لزومًا دلاليًا يربط بين الإرادة البشرية وإرادة الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30].

تُبنى العلاقة الاقتضائية في هذه الآية على تلازم داخلي يُظهر أن إرادة الإنسان لا تتحقق استقلالًا، بل تستدعي – في نظام القول – إرادة الله التي تسبقها وتحيط بها. وهذا الاقتضاء لا يقوم على تعليل مباشر، بل على انتظام لغويّ يجعل نفي الإرادة أولًا ثم استثنائها محمولًا على لزومٍ دلاليّ يُبرز قيومية المشيئة الإلهية.

ويقدّم التركيب القرآني صورة دقيقة لهذا التلازم؛ فالجملة الفعلية «وما تشاءون» جاءت منفية لتعليق الإرادة البشرية، ثم جاء الاستثناء بـ«إلا» ليحدّد المجال الذي يمكن أن تتحقق فيه المشيئة الإنسانية، فيُفهم من هذا البناء أن فعل الإنسان يقع داخل إطار المشيئة الإلهية لا خارجها. ويُسهم هذا الأسلوب في إنتاج إيقاع لغويّ تتوالى فيه النفي والاستثناء بصورة تُبرز الترتيب الطبيعي بين الطرفين؛ إرادةٌ محكومة من جهة، وأخرى حاكمة من جهة أخرى. وقد أشار المفسرون إلى هذا المعنى حين بيّنوا أن الآية تهدف إلى تقرير أن أفعال العباد لا تنفصل عن الإرادة الإلهية، وهو ما يتسق مع البنية التي تجعل المشيئة العليا أصلًا يُبنى عليه تحقق الإرادة البشرية.

ويتعزّز هذا البناء الحجاجي من خلال التقديم والتأخير، إذ يتصدر فعل الإنسان سياق النفي ليُعرض في موقع الحاجة والافتقار، بينما يأتي ذكر الإرادة الإلهية في موضع الاستثناء حيث يظهر الحكم النهائي. ويؤدي هذا النسق إلى تلازم معنوي يجعل إرادة الله مقتضًى لازمًا لكل ما يريد الإنسان فعله، وهي صياغة تخلق حجاجًا هادئًا يُظهر العلاقة بين طرفي الإرادة دون صدام أو تقريرٍ مباشر.

وقد يفهم المتلقي أن إدراك حدود الإرادة الشخصية يُسهم في تهذيب التوقعات وتقليل الشعور بالاضطراب أمام ما لا يستطيع تغييره، فيتهيأ بذلك قدر من الاتزان الداخلي. فالحقيقة اللغوية التي تُظهر تبعية الإرادة البشرية قد تُولّد إحساسًا بالتسليم والثقة بحكمة الله، وهو أثر نبثق من البنية الحجاجية نفسها، لا من خطابٍ وعظيّ أو تقرير نفسي مباشر. وهكذا تنكشف العلاقة الاقتضائية في هذه الآية بوصفها بناءً دلاليًا يُعيد ترتيب العلاقة بين الإنسان وربّه، ويتيح للمتلقي فهمًا أكثر استقرارًا لسياق الإرادة ضمن النظام الرباني.

ومن الاقتضاء العقدي الذي بيّن لزوم الإرادة البشرية للمشيئة الإلهية، ينتقل الخطاب إلى مستوى أخلاقي يكشف تلازم العمل والجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾[البقرة: 222].

تقوم العلاقة الاقتضائية في هذه الآية على تلازم دلالي يجعل محبة الله نتيجة ملازمة للتوبة والتطهر، ويؤكد هذا التلازمَ التوكيدُ بـ«إنّ» الذي يربط بين السلوك والجزاء ربطًا يحكمه انتظام البنية اللغوية. ويكشف تكرار الفعل «يحب» عن نسق بلاغيّ يرسّخ معنى القرب الإلهي، إذ يتردد اللفظ مرتين في سياق واحد ليجمع بين طهارة الباطن وطهارة الظاهر في بنية معنوية واحدة.

ويتّضح هذا التلازم من الصيغتين «التوابين» و«المتطهرين» اللتين تحملان دلالة الاستمرار، فالتوبة المتجددة والتطهر الدائم يجعلان محبة الله مفهومة من صلب البنية، لا من تعليل خارجي. ويظهر في تقديم «التوابين» ترتيب معنويّ يُبرز مركزية البعد الداخلي، بينما يأتي التطهر امتدادًا طبيعيًا له، فيتحقق الاتساق بين صفاء القلب ونقاء السلوك.

ومن انتظام هذا البناء قد يتشكل لدى المتلقي إدراكٌ يوازن بين العمل والقبول، فيتهيأ لقدر من الطمأنينة المرتبطة بفهم العلاقة بين السلوك ونتيجته. وإذا تلقّى المؤمن خطاب المحبة على هذا النحو فقد يُسهم ذلك في تهدئة شعور الذنب وتعزيز الرغبة في التوبة والتزكية. وبهذه الصورة تتكامل دلالة الاقتضاء الأخلاقي مع ما سبقها من صور الاقتضاء، فيربط الخطاب بين التوبة والطهارة وبين محبة الله ربطًا هادئًا يتيح للمتلقي بناء فهم مستقر لمنطق الجزاء الأخلاقي في القرآن.

ومع تعاقب صور الاقتضاء التي تكشف مراحل الانتقال من حدود التكليف إلى مقام الإرادة ومحبة الله، يمضي الخطاب إلى بُعد جزائي يقوم على تلازمٍ بين الإيمان والتثبيت، كما في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: 27].

وتقوم العلاقة الاقتضائية في هذه الآية على لزوم دلالي يجعل التثبيت الإلهي نتيجة ملازمة للإيمان الحق، في سياق يُظهر أن رسوخ النفس ليس عنصرًا طارئًا، بل مقتضى يتشكل من داخل بنية الإيمان نفسها. ويأتي الفعل المضارع «يُثبّت» متصدّرًا الجملة ليبرز فعل العطاء الإلهي بوصفه أصلًا تنتظم حوله دلالة النص، بينما تشير صيغة التضعيف إلى التكثير والاستمرار، مما يمنح التثبيت معنى متجدّدًا يلازم المؤمن في مواضع الابتلاء.

ويكشف التعبير «القول الثابت» عن قاعدة معنوية تستند إلى إيمان راسخ لا تتنازعه الشبهات، وهو تعبير اسميٌ يُحيل إلى ثباتٍ مستقرّ تُبنى عليه آثار التثبيت. وقد نبّه المفسرون إلى أنّ القول الثابت هو كلمة الإيمان، أو هو ما يقوم في

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

القلب من يقين، فيكون التثبيت الإلهي مقتضًى من مقتضيات هذا اليقين. ومن انتظام التركيب يظهر أن الإيمان يقتضي الثبات، وأن الثبات ذاته يُنتج رسوخًا في السلوك، وهو تلازم دلالي يبرز طبيعة العلاقة الاخلاقية بين المبدأ وأثره دون اعتماد على تعليل صريح.

ويتعزّز هذا التلازم بالازدواج التركيبي في قوله: «في الحياة الدنيا وفي الآخرة»، إذ يُظهر تكرار الجارّ امتداد التثبيت عبر مراحل الوجود الإنساني، فلا يقف عند زمن محدود. ويكشف هذا التوازي عن بُعد حجاجيّ هادئ يجعل الضمان الرباني شاملاً، ويُعيد تشكيل إدراك المتلقي لطبيعة العون الإلهي، إذ يدرك — في ضوء انتظام المعنى — أنّ الثبات ليس معتمدًا على قوته وحدها، بل على تأييد يتجاوز حدود التجربة البشرية.

ومن هذا البناء يمكن أن يولّد لدى المتلقي، بحسب وعيه بالسياق، شعور بالطمأنينة إلى قدرة الإيمان على موازنة الاضطراب الداخلي، فيتهيأ لقدر من الاستقرار الذي يتولد من فهم العلاقة بين إيمانه وبين ما يترتب عليه من تثبيت. وهذا الأثر تتيحه البنية الحجاجية التي تجمع بين الإيمان والرسوخ.

ثمّ يتجه الخطاب إلى اقتضاء معرفي يكشف حدود العلم البشري ويُظهر تلازم القصور الإنساني مع كمال العلم الإلهي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [القمان: 34].

تقوم العلاقة الاقتضائية هنا على لزوم دلالي يجعل جهل الإنسان بما سيأتي مقتضًى للاستسلام لعلم الله المحيط، لا من باب التعليل، بل من انتظام البنية التي تضع محدودية معرفة الإنسان في مقابل شمول العلم الإلهي. ويؤسس النفي بـ «ما» مع الفعل المضارع «تدري» صورة لغوية تُبرز امتداد الجهل عبر الزمن، إذ يتأكد عدم الدراية في كلّ لحظة، مما يجعل الجهل حالة ملازمة للإنسان بطبيعته.

ويظهر التكرار في التعبير «وما تدري نفس» بنيةً بلاغية محكمة تتدرج في عرض جوانب الجهل البشري، فيُعاد اللفظ نفسه ليجمع بين عدم العلم بما ينتظر الإنسان من كسب، وعدم علمه بمصير موته، فيتولّد من هذا التكرار إيقاع متصاعد يُرسّخ حضور المعنى في ذهن المتلقي. ويأتي الختام بقوله تعالى: «إن الله عليم خبير» لتكتمل المقابلة بين الطرفين، إذ تتقابل جملة النفي التي تحصر جهل الإنسان مع جملة التوكيد التي تقرر كمال العلم الإلهي، فيظهر في هذا التباين نسق معرفيّ يقوم على لزوم التسليم للعلم الرباني في مقابل العجز البشري.

وتكشف الآية في مجموعها عن علاقة اقتضائية تجعل جهل الإنسان مقدمة تُستدعى منها النتيجة، وهي الإذعان لعلم الله وحكمته. فالإنسان الذي لا يملك معرفة ما سيكسب غدًا ولا يدرك موضع موته يُفهم – من خلال هذا النظام اللغوي – أنه محتاج إلى مرجع أعلى يطمئنه إلى أن الغيب ليس متروكًا لفوضى مجهولة، بل خاضع لعلم شامل. ويُسهم هذا البناء في تشكيل حجة عقلية هادئة، قوامها المقابلة بين النفي والتوكيد، مما يجعل الإدراك بحدود المعرفة البشرية جزءًا من انتظام الخطاب، لا نتيجة تقريرية تُفرض من خارج النص.

وقد يشعر المتلقي، تبعًا لقدرته على التفاعل مع السياق، بأن الإحاطة الإلهية تفتح طريقًا للطمأنينة أمام قلق المجهول. فالمعنى الذي يقرر جهل الإنسان بالغد قد يخفف من التوتر الملازم لتوقع الأحداث، إذ يُعاد توجيه الوعي نحو علم إلهي محيط. ويتولد من انسجام العلاقة بين المقدمة والنتيجة داخل الخطاب، ويتيح للمتلقي بناء توازن بين ارتباك المعرفة البشرية وثقة القلب بحكمة الله، فيتشكل من ذلك قدر من السكينة التي تعين على مواجهة المستقبَل دون اضطراب.

وفي امتداد هذا النسق، يبرز اقتضاء روحي يجعل الإحسان طريقًا إلى الرحمة الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [السجدة: 15]. ويقوم وجه الاقتضاء هنا على تلازم دلالي يجعل الإيمان الحق مستدعيًا لأفعال الخضوع الظاهرة، إذ تُعرض الجملة الحصرية بـ «إنما» لتحديد هوية المؤمنين على نحو يُظهر أن الإيمان الذي يتفاعل مع التذكير يقتضي بالضرورة سجودًا وتسبيحًا وتركًا للاستكبار. ويعتمد النص في هذا البناء على أفعال الحركة المتتابعة، فيجعل منها نسقًا يبيّن تدرّج الفعل من الخضوع البدني إلى التنزيه القلبي، في ارتباط لغوي يكشف أثر الاعتقاد في السلوك.

وتُقدّم الآية مشهدًا بلاغيًا نابضًا، تتوالى فيه أفعال «خرّوا»، «سُجّدًا»، «سبّحوا»، في إيقاع متدرّج يعكس حركة داخلية تميل إلى الخضوع. فالفعل «خَرّوا» يوحي بالسقوط السريع المفعم بالمهابة، وتأتي صيغة «سُجّدًا» لتجسّد هيئة السجود بصورة صوتية تضيف بعدًا تصويريًا، بينما يكشف الفعل «سبّحوا» عن الجانب الروحي الذي يتلو السجود، فيكون التسبيح امتدادًا للخشوع. ويأتي الختام بـ «وهم لا يستكبرون» ليجمع بين طهارة السلوك الظاهر وانكسار القلب، في تلازم يدلّ على أن الاستكبار يقف في الجهة المناقضة من الإيمان.

وقد وُصف أصحاب هذا المقام في التفسير بأنهم لا يستكبرون لا بقلوبهم ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم" (الحضريتي، 1444، ص 130).

ويقوم البناء الحجاجي في الآية على علاقة اقتضائية واضحة، إذ يُعرض الإيمان في صورة عملية ترتّب عليها لوازم من الخضوع والذكر، فيُفهم من سياق الحصر أنّ الإيمان الذي لا يولّد هذه الآثار ليس حاضرًا وفق منطق الآية. وقد أشار المفسرون إلى هذا المعنى حين وصفوا المؤمنين بأنهم يقابلون التذكير بالقبول والتواضع، ويتلقّون الآيات بروح من الانشراح، فتتكوّن لديهم حالة من الانقياد تجمع بين الظاهر والباطن، وهو ما ينسجم مع طبيعة الاقتضاء في النص الذي يجعل أثر الإيمان متجسّدًا في هيئة وسلوك.

ومن انتظام هذه البنية قد يشعر المتلقي، بحسب قدرته على استحضار المعنى، بأن السجود والتسبيح وترك الاستكبار تمثل مسارًا عمليًا يخفف من توترات النفس ويعيد ترتيب الداخل. فالسجود -كما تصوره الآية- يضع الإنسان أمام عظمة الخالق فينصرف عنه دافع الكِبر، والتسبيح يفتح في القلب باب الحمد والرضا، وترك الاستكبار يحرّر النفس من ثقل الأنا، وهي عناصر قد تسهم في إحداث شكل من الاتزان النفسي. ويُفهم هذا الأثر بوصفه احتمالًا ينشئه انتظام العلاقة بين الإيمان ولوازمه في النص، لا بوصفه نتيجة قطعية، وبذلك تتكامل الدلالة الروحية والعملية في إطار يربط الاعتقاد بالسلوك ربطًا يُفضي إلى فهم أعمق للخطاب القرآني.

ومن هنا يتبيّن اقتضاءٌ معرفيٌّ يربط بين إدراك صفات الله ووجوب عبادته، في تلازم يجعل الوعي بربوبيته طريقًا طبيعيًا للخضوع له، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ ﴾ [يونس: 3].

تقوم العلاقة على لزوم دلالي يجعل العبادة ثمرةً ملازمة للمعرفة بصفات الله، إذ تُساق الأفعال الإلهية في سياق متدرّج يبدأ بالخلق، وينتقل إلى الاستواء، ثم التدبير، ثم نفي الشفاعة بغير إذنه، ليتهيّأ السياق للأمر بالعبادة بوصفه نتيجة طبيعية لتلك المقدمات.

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

ويكشف النسق البياني في الآية عن صعود دلالي يضمّ أفعالًا جليلة تُظهر هيمنة الله على الكون، مما يعمّق في ذهن المتلقي صورة القدرة المطلقة. فالفعل «خلق» أساس الوجود، والاستواء على العرش يشير إلى السيادة، وتدبير الأمر دليل الإحاطة، ونفي الشفاعة يقطع الالتجاء إلى غير الله. ويأتي اسم الإشارة «ذلكم» ليربط ما تقدم بنتيجة الخطاب، بينما يضفي التعبير «ربّكم» بعدًا خاصًا يوثّق الصلة بين المخاطَب وربه، فيغدو الأمر في «فاعبدوه» امتدادًا لما سبقه من صفات.

وتُظهر الآية علاقة اقتضائية واضحة؛ فذكر صفات القدرة ليس غاية في ذاته، بل تمهيد لفظيّ يبني عليه النص نتيجته. فالبنية لا تعرض صفات الله باعتبارها معلومات معرفية جامدة، بل باعتبارها مقدمات تُستخلص منها عبادةٌ واجبة، بحيث يصبح الانتقال من الإدراك إلى الامتثال انتقالًا داخليًا يتولّد من طبيعة السياق. وقد أشار المفسرون إلى هذا الرابط حين بيّنوا أنّ الأمر بالعبادة يأتي بعد إقامة الدليل على استحقاق الله لها، وهو ما ينسجم مع منطق الاقتضاء في الخطاب.

وقد يدرك المتلقي، تبعًا لقدرته على استيعاب هذه المقاصد، أنّ ترتيب الأفعال الإلهية في الآية يفتح أمامه أفقًا من السكينة؛ فمعرفة الخالق المدبّر تُعيد توجيه الوعي نحو مصدر واحد يملك الأمر كله، ما قد يخفف حدّة القلق تجاه ما يجري في الكون. وفي هذا الإطار يمكن أن ينشأ شعور بالطمأنينة بوصفه احتمالًا يستفاد من تماسك المعنى وانتقاله الهادئ من صفات الله إلى الأمر بعبادته، فيلتقي الإدراك المعرفي بالتوجه العملي في صورةٍ قد تُسهم في استقرار النفس.

ويتصل مسار الاقتضاء بما يكشفه القرآن من عدل الله المطلق؛ إذ تُبنى العلاقة هنا على لزوم دلالي يجعل نفي الظلم نتيجة ملازمة لصفة العدل الإلهي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾[النساء: 40].

تُبنى الآية على قاعدة جزائية مفادها أن عدل الله يقتضي انتفاء الظلم مهما صغر، وهو ما تمّ بناؤه على صياغة محكمة تجمع بين التوكيد والنفي والتصغير. ويُنشئ الجمع بين «إنَّ» المؤكِّدة و«لا» النافية حصرًا دلاليًا يُثبّت حقيقة العدل الإلهي، فيجعل نفي الظلم لازمًا من لوازم هذه الصفة. ويأتي التعبير «لا يظلم» بصيغة الفعل المضارع ليعطي المعنى امتدادًا مستمرًا، بينما يعمّق تركيب «مثقال ذرة» الصورة البلاغية؛ إذ يتلاقى فيه الوزن الدقيق والحجم المتناهي في الصغر ليجسّد أقصى درجات التنزيه عن الظلم.

ويكشف هذا التركيب المركز عن علاقة اقتضائية تنبني على مقابلة دقيقة بين طرفين: فعل إلهي منفي لا يمكن أن يتلبّس بالظلم، ومقدار بالغ الدقة لا يُتصوَّر أن يغيب عن العدل الإلهي. ومن تلازم هذين الطرفين يتأسس المنطق الحجاجي للآية؛ فالعدل الكامل يقتضي نفي الظلم، ونفي الظلم يفضي إلى يقين المتلقي بأن الجزاء الإلهي محكم لا يعتريه خلل.

ويبرز البناء البلاغي في اختزال المعنى في ثلاث لبنات لغوية: «إنّ»، «لا يظلم»، «مثقال ذرة»؛ وهي صياغة شديدة الاقتصاد تُحقق ما يسميه البلاغيون الإيجاز المحكم، إذ تسوق الحجة بأقصر صورة وأوضحها. ويقوّي الإيقاع الصوتي للجملة -بما تحمله من تقابل بين النفي والتوكيد- أثرَها في نفس المتلقي، فيستقر معنى العدل على نحو واضح.

وقد ينشأ عن هذا الاقتضاء الشعور بالأمان من الجور، ويخفف قلقه من المصير أو تقلبات الحياة. فحين يدرك أن ميزان الله لا يغفل عن أقل الأعمال وزنًا، قد ينمو لديه وعيٌ أخلاقيٌّ منضبط، وشعور بالسكينة قائم على الإيمان بأن العدل الإلهي شامل لا يستثني شيئًا. وهكذا يلتقي الاقتضاء الدلالي في الآية مع إمكانية بناء توازن نفسي ينبثق من ثقة المؤمن بعدل ربه.

ويتجه الخطاب بعد ذلك إلى صورة تبرز الإحاطة الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾[البقرة: 284].

يقوم وجهُ الاقتضاء هنا على لزوم دلالي يجعل المحاسبة متعلّقة بما في النفس، ظاهرًا كان أو خفيًّا، في بناء يُظهر شمول الرقابة الإلهية وإحاطتها. وتعتمد الآية على مقابلة بين فعلين متضادين: «تُبدوا» و«تُخفوه»، في صياغة تستوعب حالتي الإعلان والكتمان معًا، فيتكوّن من هذا التضاد نسقٌ بلاغيّ يقدّم الإحاطة الإلهية من طرفيها. ويُسهم هذا التوازي في ترسيخ المعنى في وعي المتلقي؛ إذ يجعل ما في النفس برغم خفائه في حُكم الظاهر عند الله. ويمنح هذا الشمول بعدًا حجاجيًا يُظهر أن التقابل بين الفعلين لا يهدف إلى الترتيب أو التعليل، بل إلى بيان تمام الإحاطة.

وتتجلّى العلاقة الاقتضائية في الجملة الشرطية من كون المحاسبة لا تأتي بوصفها نتيجة سببية لفعل الإبداء أو الإخفاء، بل بوصفها لازمًا معنويًا يستدعيه انتظام البنية الشرطية. فوجود ما في النفس يُستدعى في جواب الشرط على سبيل الإحاطة لا الجزاء المرتّب على سبب محدد. وهكذا يتبيّن أن الاقتضاء هنا ليس علاقة علّة ومعلول، بل علاقة تلازم دلالي يربط بين حال النفس وبين حكم الآية العام في بيان شمول العلم الإلهي.

ويقدّم هذا التركيب رؤية بلاغية تستند إلى الاقتصاد والإحكام؛ إذ جُمعت حالتان متقابلتان في جملة واحدة، ثم أُتبع ذلك بالفعل «يحاسبكم» المتصدر للجملة الجوابية ليظهر قوة الارتباط بين مضمون النفس ومقتضى المحاسبة. ويُسهم الفعل المضارع «يحاسبكم» في تصوير استمرارية المعنى وتجدد سلطانه، بما يعزز إحساس المتلقي بأن ما في داخله واقعٌ في حُكم العلم الإلهي مهما خفي.

وقد يُفضي هذا البناء اللغوي إلى أثر نفسي؛ إذ يشعر المتلقي بأن اتساق السلوك الظاهر مع الباطن ضرورة تنتج عن وعيه بشمول العلم الإلهي، مما قد يخفف من الاضطراب أو التردد في تقدير الأفعال والنيات. ويتيح هذا المستوى من الوعي إمكانَ توازن داخلي، يتولد من إدراك أن ما في النفس لا ينفصل عن منظومة المحاسبة الإلهية التي أحاطت بكل شيء علمًا.

ويجيء الخطاب بعد ذلك بصورة جديدة من صور الاقتضاء، تُظهر انحصار القدرة على كشف الضر بالله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾[الأنعام: 17].

تظهر الآية تلازمًا ودلاليًا يربط بين وقوع الضرّ وإحكام الحصر في كشفه، في بنية تُبرز يقين التعلق بالله وحده. وتعتمد الآية بناء الشرط والحصر معًا؛ فالشرط «إن يمسسك الله بضرّ» لا يقدّم علة ينتج عنها الجواب، بل يمهّد لمعنى سابق على الشرط وهو انفراد الله بالكشف. ولهذا جاء الجواب بصيغة قصر قوية «فلا كاشف له إلا هو»، حيث أقيمت «إلا» مقام الفصل الذي يحصر الفاعلية في جهة واحدة دون سواها، ليظهر الاقتضاء بوصفه نتيجةً لازمة لمقام الألوهية لا لسببٍ أحدثه المسّ بالضر.

ويكشف اختيار الفعل «يمسسك» دقةً بلاغية؛ إذ يصوّر الضر في أدنى مراتبه، مما يدل على أنّ كشفه—مهما دقّ—لا يملكه إلا الله. كما أنّ الجملة الاسمية في الجواب «لا كاشف له إلا هو» تفيد الثبات والدوام، في حين يوقد الجمع بين النفي والاستثناء طاقةً حجاجية تجعل الحصر أقرب إلى اليقين الراسخ.

وتتأسّس علاقة الاقتضاء هنا على بيان ملازمة دلالية بين أمرين: انكشاف العجز البشري أمام أدنى مسّ من الضر، وانحصار القدرة على كشفه في الله وحده. فليس السياق تعليلاً سببيًا بين المسّ والكشف، بل تقريرٌ لمبدأ عقدي تُستدعى فيه النتيجة بوصفها حقيقة مطلقة ملازمة للمقدمة اللغوية.

وقد يثمر هذا البناء في توجيه المتلقي إلى نقل نظره من وسائله المحدودة إلى القدرة الإلهية المطلقة، مما قد يخفف حدّة الخوف أو القلق عند مواجهة الابتلاء. ومن خلال هذا الوعي، يمكن أن يتولّد نوع من التوازن الداخلي بين الإحساس بالعجز وبين الثقة في تدبير الله، وهو توازن يستند إلى انتظام الحجة القرآنية واستقرار دلالاتها.

ويكشف الخطاب القرآني عن علاقة اقتضائية دقيقة تربط الإحسان بقرب الرحمة الإلهية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: 56].

يقوم وجه الاقتضاء في الآية على لزوم دلالي يجعل الرحمة ملازمة للإحسان، إذ يُقدَّم الخبر «قريب» على المبتدأ ليكتسب معنى الخصوصية والاهتمام، ويجعل من القرب نتيجةً تتولّد من السياق نفسه.

وتبرز كلمة «قريب» بما تحمله من رقة صوتية وإيحاء بالانفتاح الزمني، فتمنح المعنى حضورًا لطيفًا يلامس المتلقي بصورة توحي بقرب الرعاية الإلهية. وقد ورد في التفسير أن «ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا قريب منهم... وليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعدّ لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم»، وأن اختيار لفظ «قريب» يرتبط بإرادة قرب الوقت (الغنيمان، 1405: 2/187).

ويعزّز تقديم الجار والمجرور «مِنَ المحسنين» هذا الارتباط الداخلي بين العمل وجزائه، فيغدو الإحسان محورًا تستدعى معه الرحمة وفق انتظام دلالي لا يحتاج إلى تعليل خارجي. كما يضفي تصدير الجملة بـ«إنّ» قوة تقريرية تجعل دلالة القرب أكثر رسوخًا في السياق.

وتتكامل البنية البلاغية للآية في مشهد لغوي يجمع بين صفاء الفعل وامتداد الرحمة، إذ يعكس الإحسان حالة من الانفتاح والتجاوز، بينما يصوّر لفظ «قريب» حضورًا ربانيًا يتجاوب مع هذا السلوك. ومن هذا النسق تتشكّل لدى المتلقي لمحة من السكون الداخلي، تبعًا لدرجة استيعابه لمعاني الخطاب؛ فالقرب في هذه الآية يبدو متصلًا بما يتيحه الإحسان من نقاء واستقامة، فيضع الإنسان أمام معنى يستدعي الطمأنينة دون أن يُفصح النص عنها مباشرة.

ومع هذا البناء المتدرّج، يعرض الخطاب وعدًا يقوم على اقتضاءٍ يربط بين العسر واليسر في تلازمٍ يعيد تشكيل الوعي بالابتلاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾. ويُبرز التوكيد بـ«إنَّ» والتقديم في «مع العسر» ملازمةً دلالية تجعل اليسر مقترنًا بالعسر اقترانًا بنيويًا، لا لاحقًا له، في تركيب مكثّف يجمع بين الإيجاز والإحكام.

وقد بيّن المفسرون هذا الاقتران بقولهم إنّ "مع الضيقة سعة ومع الشدة رخاء ومع الكرب فرجًا، وأن التعبير بـ(مع) يفيد سرعة مجيء اليسر حتى كأنه مقارن للعسر" (صديق حسن خان، 1412، ج15، ص293). ويكشف هذا التفسير عن الأساس اللغوي للاقتضاء في الآية؛ إذ يجعل معنى المصاحبة جزءًا من نسيج التركيب، فتُفهم الملازمة بين الطرفين من ذات البنية دون حاجة إلى تعليل خارجي.

ويؤدي تقديم الجار والمجرور وظيفة تمهّد لظهور اليسر في موضع النتيجة، بينما يضفي تنكير «يسرًا» سعةً دلالية تُشير إلى تعدّد وجوه الفرج وتنوّعها. وتُسهم الجملة الاسمية في تثبيت المعنى وتوكيده، فيبدو اليسر ملازمًا للعسر ملازمةً مستقرة داخل النظام الدلالي.

ويكشف هذا الربط عن نسق حِجَاجي يُعيد ترتيب إدراك المتلقي للعسر؛ إذ يُنقل من ضيق اللحظة إلى أفقٍ أوسع تُقيمه البنية اللغوية نفسها، لأن اليسر في منطق الآية جزءٌ من طبيعة الابتلاء، لا عارضٌ يأتي بعده. ويتّسق هذا المعنى مع مقصد الآية في تهيئة وعي يوازن بين إدراك الشدّة واستحضار سعة الفرج.

ومع اكتمال وعد اليسر، تتوسع دلالة الاقتضاء لتشمل مسارًا حِجَاجيًا يربط مستويات متعددة من الخطاب -العسر والفرج، والابتلاء والتيسير- ضمن شبكة دلالية تكشف عن انتظامٍ داخلي يجعل اليسر ملازمًا للعسر في كل موضع يرد فيه هذا النسق.

وختامًا، يتبيّن من خلال تتبّع الآيات محلّ الدراسة أنّ العلاقة الاقتضائية ليست آلية دلالية منفصلة، بل إطار حجاجي متكامل يقوم على لزومٍ داخليّ تنتظم به صفاتُ الله تعالى، وحقيقةُ النفس الإنسانية، ومتطلباتُ الاتزان الروحي والعقلي. وقد كشفت الآيات، عبر تراكيبها المحكمة وإيقاعاتها المنتظمة وصيغها البلاغية المتنوعة، عن نسقٍ تتشابك فيه المعاني الظاهرة مع مقتضياتها الباطنة، بحيث يتولّد من انتظام البنية اللغوية ما يفتح أمام المتلقي احتمالاتٍ من الطمأنينة والسكون. وهكذا لا تنفصل البنية الوجدانية للنص عن بنيته اللغوية، بل تتكوّن من خلال التلازم الدلالي الذي يجعل كل معنى ممهّدًا لغيره، فتتتابع الدلالات ويتهيّأ معها أثرٌ نفسيّ قد يسهم في بناء توازنٍ داخليّ تبعًا لدرجة وعي المتلقي واستجابته للسياق.

النتائج:

1. تبيّن أن العلاقة السببيّة في الخطاب القرآني لا تُقدَّم بوصفها علاقة آلية، بل بوصفها بناءً حجاجيًا يعيد تنظيم المعنى عبر ربط السلوك بنتيجته ربطًا يُظهر التعليل في سياقٍ محكم، بحيث يتهيّأ المتلقي لاستقبال الجزاء حتى قبل التصريح به.
2. أظهرت الآيات أن القرآن يوظّف أدوات لغوية متعددة في بناء السببيّة -كأساليب الشرط، والباء السببية، والتقديم، وصيغ التوكيد- وهي أدوات تُرسّخ الارتباط بين الفعل وأثره، وتكشف كيفية تشكّل الحجة داخل البنية اللغوية.
3. دلّ التحليل على أن العلاقة السببيّة قد تُحدِث أثرًا نفسيًا حسب وعي المتلقي واستجابته من خلال ربط أفعال مثل الذكر، والإنفاق، والعمل الصالح، والصبر بنتائج نفسية كالسكون، واتساع الأمل، ونفي الخوف، والشعور بالكفاية؛ وهي آثار تُستفاد من انتظام البنية اللغوية لا من الوعظ المباشر.
4. اتضح أن السببيّة تربط بين الداخل النفسي والممارسة العملية في شبكة دلالية تجعل الفعل التعبدي أو الأخلاقي مدخلًا لإعادة الاتزان الشعوري، في نظام يجمع بين القول والتوجيه والسلوك.
5. بيّنت النصوص أن السببيّة تمتد من الفرد إلى الجماعة؛ فارتباط نصرة الدين بنصر الله وتثبيت الأقدام يكشف بُعدًا نفسيًا جماعيًا يُعيد بناء معنى الثقة والقدرة على مواجهة التحديات.
6. أظهرت الدراسة أن العلاقة الاقتضائية من أدقّ العلاقات الحجاجية، لأنها تقوم على لزوم دلالي لا على التعليل المباشر؛ فالنتائج تتولد من نظام الخطاب ذاته، مما يعزز بناء المعنى عبر الإيحاء والانتقال الداخلي المنتظم.
7. أثبتت النماذج أن الجملة الشرطية -الصريحة أو المضمرة- تمثّل ركنا لغويًا أساسيًا في إبراز الاقتضاء، خصوصًا في الآيات التي تربط بين صفات الله وآثارها في النفس الإنسانية، بحيث يتشكل المعنى من تلازمٍ ذهني أكثر منه من علاقة سببية.
8. كشف التحليل أن الاقتضاء يسهم في تحقيق الاتساق النفسي عبر تتابع مستويات الخطاب: من الرحمة والعلم والمحبة، إلى التثبيت والمعية، بما يهيّئ المتلقي لاستقبال المعنى بدرجة أعلى من الهدوء والانسجام.
9. دلّ السياق على أن العلاقة الاقتضائية تعمل بصورة تراكمية؛ إذ تتوالد المعاني من لوازمها في تسلسل منطقي، مما يجعل الدلالة القرآنية تقوم على انتظام داخلي لا يحتاج إلى التصريح أو المباشرة.
10. اتضح أن العلاقة الاقتضائية قد تنتج أثرًا نفسيًا ملحوظًا، لأنها تُشعر المتلقي بأن المعنى ينبثق من بنية النص ولوازمه، لا من إلزام خارجي، وهو ما قد يعزز شعور الطمأنينة والانفتاح على الهداية تبعًا لدرجة الوعي بالسياق.

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

التوصيات

1. دعوة الباحثين إلى توسيع الدراسات التي تربط بين البنى البلاغية والأبعاد النفسية، ضمن مقاربات تجمع بين البلاغة وتحليل الخطاب وعلم النفس اللغوي.
2. الإفادة من نتائج هذه الدراسة في تطوير مناهج تعليم البلاغة والتفسير، بإبراز دور العلاقات الحجاجية في تنظيم المعنى وتوجيه عملية التلقي.
3. تشجيع تطبيق النظريات الحجاجية الحديثة في تحليل النص القرآني، مع مراعاة خصوصيته البلاغية والدلالية، بما يتيح فهمًا أعمق لآليات بناء المعنى.

المراجع:

الإباري، إ. إ. (1405هـ). الموسوعة القرآنية، مؤسسة سجل العرب.

إبراهيم، ع. ا. (2003م). القلق: أسبابه ومظاهره وأساليب علاجه. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الجرجاني، ع. ق. (1992). دلائل الإعجاز (تحقيق: م. شاكر؛ ط1). دار المدني.

الجرجاني، ع. ق. (د.ت). أسرار البلاغة (تحقيق: م. م. شاكر). دار المدني.

ابن جني، أ. ف. ع. (1999). الخصائص (تحقيق: م. ع. النجار؛ ط4). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الحباشة، ص. (2008). التداولية والحجاج ومداخل ونصوص (ط8). صفحات للدراسات والنشر.

الحضريتي، إ. ب. ح. (1444هـ). أثر عمل القلب على عبادة الذكر والدعاء. مكتبة الملك فهد الوطنية.

الدريدي، س. (2011). الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه (ط2). عالم الكتب الحديثة.

الرازي، ف. د. (1420هـ). مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (ط3). دار إحياء التراث.

الزمخشري، أ. ق. م. ب. أ. أ. (1407هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (ط3). دار الكتاب العربي.

السعران، م. (1997). علم اللغة: مقدمة للقارئ العربي (ط2). دار الفكر العربي.

الشبعان، ع. (2010). الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل: بحث في الأشكال والاستراتيجيات (ط1). دار الكتاب الجديد المتحدة.

الشهري، ع. هـ. ظ. (2004). استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية (ط1). دار الكتاب الجديد.

صديق حسن خان، ف. (1412هـ). فتح البيان في مقصد القرآن (قدّم له وراجعه: ع. إ. الأنصاري؛ ط1). المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

صولة، ع. (2011). في نظرية الحجاج: دراسة وتطبيقات (ط1). مسكيلياني للنشر والتوزيع.

ابن عاشور، م. (1404هـ). تفسير التحرير والتنوير (ط2). الدار التونسية للنشر.

الطبري، أ. ج. م. ب. ج. (1422هـ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تحقيق: ع. ب. ع. م. التركي؛ ط1). دار هجر للطباعة.

طروس، م. (2005). النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية (ط1). دار الثقافة.

الطلبة، م. س. م. ا. (2008). الحجاج في البلاغة المعاصرة (ط1). دار الكتب الجديدة.

عبد الخالق، أ. (2002). الصحة النفسية (ط1). دار المعرفة الجامعية.

العزاوي، أ. ب. (2010). الحجاج في اللغة، ضمن كتاب الحجاج: مفهومه ومجالاته (ط1). مركز دراسات الأدب العربي.

عشير، ع. س. (2006). عندما نتواصل نغير: مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج (ط1). إفريقيا الشرق.

الغنيمان، ع. م. (1405هـ). شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (ط1). مكتبة الدار.

فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف: ح. ص. (د.ت). أهم نظريات الحِجَاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم. المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية.

ابن القيم الجوزية، أ. ع. م. ب. أ. ب. أ. (1441هـ). مدارج السالكين في منازل السائرين (تحقيق: م. أ. الإصلاحي وآخرون؛ ط2). دار عطاءات العلم.

آل موسى س. ب. م. ب. ع. (2023). مغالطات فرعون الحجاجية مع موسى عليه السلام في القصص القرآني. *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية، 5*(1)، 1–122. https://doi.org/10.53286/arts.v5i1.1438

References

Abdul Khaliq, A. (2002). Al-Sihhah al-Nafsiyyah (1st ed.). Dar al-Ma'rifah al-Jami'iyyah.

Al-Azzawi, A. B. (2010). Argumentation in Language, in Argumentation: Its Concept and Fields (1st ed.). Center for Arabic Literature Studies.

Al-Duraidi, S. (2011). Argumentation in Arabic Poetry: Its Structure and Styles (2nd ed.). Modern Book World.

Al-Ghunaiman, A. M. (1405 AH). Explanation of the Book of Tawhid from Sahih al-Bukhari (1st ed.). Dar Library.

Al-Habasha, S. (2008). Pragmatics, Argumentation, Approaches, and Texts (8th ed.). Pages for Studies and Publishing.

Al-Hadriti, I. B. H. (1444 AH). The Impact of the Heart's Function on the Worship of Remembrance and Supplication. King Fahd National Library.

Al-Ibari, I. I. (1405 AH). The Qur'anic Encyclopedia, Arab Record Foundation.

Al-Jurjani, A. Q. (1992). The Signs of Inimitability (edited by M. Shaker; 1st ed.). Dar Al-Madani.

Al-Jurjani, A. Q. (n.d.). The Secrets of Eloquence (edited by M. M. Shaker). Dar Al-Madani.

Al-Razi, F. D. (1420 AH). Keys to the Unseen (The Great Commentary) (3rd ed.). Dar Ihya al-Turath.

Al-Sa'ran, M. (1997). Linguistics: An Introduction for the Arab Reader (2nd ed.). Arab Thought House.

Al-Shabaan, A. (2010). Argumentation, Truth, and Horizons of Interpretation: A Study of Forms and Strategies (1st ed.). New Book House United.

Al-Shahri, A. H. Z. (2004). Discourse Strategies: A Pragmatic Linguistic Approach (1st ed.). New Book House.

Al-Tabari, A. J. M. B. J. (1422 AH). Jami' al-Bayan 'an Ta'wil Ayi al-Qur'an (Edited by: A. B. A. M. al-Turki; 1st ed.). Dar Hajar for Printing.

Al-Talaba, M. S. M. A. (2008). Al-Hajjaj fi al-Balaghiyyah al-Mu'asirah (1st ed.). Dar al-Kutub al-Jadida.

Al-Zamakhshari, A. Q. M. B. A. A. (1407 AH). The Revealer of the Truths of the Obscure Meanings of Revelation (3rd ed.). Arab Book House.

Ashir, A. S. (2006). When We Communicate, We Change: A Pragmatic-Cognitive Approach to the Mechanisms of Communication and Argumentation (1st ed.). Africa East.

Ibn Ashur, M. (1404 AH). Tafsir al-Tahrir wa al-Tanwir (2nd ed.). Al-Dar al-Tunisiyyah for Publishing.

Ibn Jinni, A. F. A. (1999). Characteristics (edited by M. A. Al-Najjar; 4th ed.). Egyptian General Book Organization.

Ibn Qayyim al-Jawziyya, A. A. M. B. A. B. A. (1441 AH). The Stages of the Wayfarers in the Stations of the Travelers (edited by: M. A. Al-Islahi et al.; 2nd ed.). Dar Ata'at al-'Ilm.

Ibrahim, A. A. (2003 CE). Anxiety: Its Causes, Manifestations, and Methods of Treatment. World of Knowledge, National Council for Culture, Arts, and Letters.

Research Team in Rhetoric and Argumentation, supervised by: H. S. (n.d.). The Most Important Theories of Argumentation in the Western Tradition from Aristotle to the Present Day. Official Printing Office of the Republic of Tunisia.

Sawla, A. (2011). Fi Nazariyyat al-Hajjaj: Dirasah wa Tatbiqat (1st ed.). Miskiliani for Publishing and Distribution.

Siddiq Hasan Khan, F. (1412 AH). Fath al-Bayan fi Maqsad al-Qur'an (Presented and reviewed by: A. I. al-Ansari; 1st ed.). Al-Maktabah al-'Asriyyah for Printing and Publishing.

Tarous, M. (2005). Al-Nazariyyah al-Hajjajiyyah min Khilal al-Dirasat al-Balaghiyyah wa al-Mantiqiyah wa al-Lisaniyyah (1st ed.). Dar al-Thaqafah.

Al Mosa, S. M. A. (2023). Pharaoh's Argumentative Conversational Fallacies with Moses, peace be upon him, in Quranic Stories. *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *5*(1), 1–122. https://doi.org/10.53286/arts.v5i1.1438